رسائل إلى الوطن

تأليف

الدكتور مرزوق بن صنيتان بن تنباك

قالوا:

لا

- للخلل الاجتماعي
- للإقليم الواحد
- للمدينة الواحدة
- للقرية
- لجماعة المصلحة
- لبؤر التميّز والانحياز

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

رسائل إلى الوطن

تأليف
الدكتور مرزوق بن صنيتان بن تنباك

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

www.mtenback.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

المحتويات

الصفحة

الفصل الأول : رسائل إلى الوطن ١١

قالوا لا ١٣
ولكل قاعدة شواذ ١٥
الظاهرة الاجتماعية ١٨
انك مدعو للاستماع ٢١
الوصية ٢٤
على الغارب عقبة ٢٦
سأنيخ صيدح ٢٩
رسالة إلى الإخوان ٣٢
لغة منقوطة ٣٦

الفصل الثاني : كلمات بيضاء ٣٩

إنج سعد فقد هلك سعيد ٤١
احتمال الخطأ ٤٤
حدود المجاملة ٤٦
الكتاب لايقرأ من عنوانه ٤٨
مدرسة الحياة ٥١

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك www.mtenback.com
www.mtenback.com

الصفحة

الرسائل الأدبية ٥٣

التأليف الوصفى ٥٥

النصر نشوة ٥٧

حال العرب ٥٩

الحديث والقديم ٦١

لو باع العرب الفلافل ٦٣

الكلمة البيضاء ٦٥

منصور الحازمى وزمرته ٦٧

الفصل الثالث : **أفكار مبتورة** ٧١

للزمن الخرف من يقرع العصا؟ ٧٣

حتى يسير موكب الثقافة ٧٧

قراءة فى الطقس الأمريكى ٨١

الرجال الكبار والجامعة الكبيرة ٨٥

التواصل الثقافى ٩٠

الظروف الاجتماعية المتغيرة ٩٤

التحدى الثقافى ٩٩

وجاء مصحف المدينة ١٠٤

الفصل الرابع : **قصة التعليم العالى فى البلاد** ١١١

فروع الجامعات حاجة ملحة أم لا؟ ١١٣

التعليم والتقنية ١١٩

www.mtenback.com

الصفحة

قصة التعليم العالى فى المملكة ١٢٤
التعليم والتقنية ١٢٩
قصة التعليم الجامعى فى المملكة ١٣٤

الفصل الخامس : **فى سبيل لغة القرآن** ١٤١

اللغة العربية تعرض حالها ١٤٣
لايجب أن يكون للعامية ما للفصحى ١٤٨
التلازم بين الدين واللغة ١٥٢
لماذا تهتم الجامعات الغربية بدراسة الأدب العامى ؟ ١٥٦
ما الاسم المناسب لغير الفصيح من الأدب ١٦٥

الفصل السادس : **المحاضرة** ١٧١

المحاضرة ١٧٣
لم ينس الشعب الأمريكى من أين جاء ١٧٧
الدولة وإقليمية النخبة ١٧٨
اختزال الوطن ١٨١
التعصب للإقليمية ١٨٢
المحسوبية ١٨٤
الرأى الثانى ١٨٥

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

هذه شـذرات ممّا كنت نثرته في الصحافة المحلية على مدىٰ ستة عشر عامًا مضت. عدت إليها، وانتخلت منها ما كان فى جملته نبضًا لأحاسيس الوطن وهمومُ الناس.

ولمّا كانت «**رسائل إلى الوطن**» أحدث تلك الخواطر، جعلتها الخطام، ومقادها إليك!

مـرزوق

موقع الدكتور مرزوق تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

رسائل إلى الوطن

تأليف

الدكتور مرزوق بن صنيتان بن تنباك

قالوا: لا

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

رسائل إلى الوطن

موقع الدكتور مصطفى بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الفصل الأول

رسائل إلى الوطن

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

قالوا «لا»[1]

لا أريد أن أرسم صورتك في الماضي القريب. أى قبل ما يزيد على خمسين عاما، ولا أريد أن أسلم عقلي لقصص الشيوخ الذين أدركوا ذيول ذلك الماضي، فحدثوا عنه في مقارنات غير متكافئة وصفه بعضهم بأنه كان شرا لا خير فيه، ووصفه آخرون بأنه خير مما هو في نظر الفريق الأول.

زمن مضى لا أريد رسمه بكامل التفاصيل أمام الواقع لكى أقيم المقارنة، لكنني أقرأ في صفحتك ما عفا عليه الزمن وتخطاه الاهتمام وكاد يمحى من ذاكرة التاريخ، وهو أنه قد كان فيك مجال للتناحر القبلي والاقليمي والعائلي والخوف المستبد منك وفيك، حتى أعاد الناس أحداثا تشبه أحداث ماضيك البعيد، فأعادتهم الأحداث إلى مجتمع القبيلة والقرية، وانبعثت التقاليد والأعراف من قيد العقل، فأصبحت الحروب الاقليمية تدك أوصالك وتحيلك إلى أجزاء متناحرة الإرادة فكان للقبيلة فيك التكوين الأقوى.

كان أمام المصلحين من أبنائك خياران لا ثالث لهما، إمَّا أن تبقى ذلولا لتحقيق مصلحة لفئة محدودة المساحة وميدانا للقبيلة والعشيرة والقرية والإقليم، وأن تتعدد لك الولاءات بتعدد المصالح الضيقة، أو أن تجمع الولاءات والأطراف، وتتحدد الأغراض والأهواء وتصهرها في بوتقة الوطن الواحد الذى يصنع الأمة ويجمع الشمل وأن يكون الولاءُ له وحده، وأن تذاب النعرة للقبيلة والحميّة للقرية والانتماء للاقليم وتصب في كيان الأمة وحسبك ذلك.

صار الخيار الأخير هو الأقوى، فعادت إليك وحدة أجزائك وجُمعت عليك أطراف القوة فيك وجنحان النهوض بك وكنت نموذجا للأمة يوم رفض المخلصون من أهلك أن يصبح جور القوة وحرارة الحمية وثورة الغضب هي

(١) الرياض ١٤٠٩/٣/٢٢ هـ - ١٩٨٨/١١/١ م - عدد ٧٤٣٦.

www.mtenback.com

لغة التفاهم التى تعرفها وتترجم معناها، فقالوا لا للخلل الاجتماعي الطارئ على أرضك، ورفعوا فكرة المستقبل وتصوروها قبل أن يرفعوا راية الجهاد من أجل الوحدة وهي تحمل كلمة مفردة «لا» للاقليم الواحد لا للمدينة الواحدة لا للقرية ولا لجماعة المصلحة.

سار الشرق والغرب والشمال والجنوب واجتمعوا على القلب النابض بالأمل ووقف الجميع تحت ظل الراية.

فسجل التاريخ الحديث لك صورة سوية لم يضمر منها جزء، ولم يظلل منها جانب، كل عضو فيها أخذ مكانه، وأعجب الناظرين، فيك جمال متناسق البنيان، وفيك تجلت مهارة التصوير وفن النحت، رفعت صورتك في صدر المجلس وفي قمة الزاوية وزين بها ميدان التجمع، فارتفعت السارية في جو السماء واجتمعت قمتها مع السحاب، فلم تحجبها قامة متطاولة ولا تضاءلت دونها نظرة قصوى.

رفض المخلصون قبل خمسين عاما أن تكون القبيلة هي الكيان المتميز على أرضك، فلماذا لا يرفضون اليوم أن يأخذ الإقليم في حاضرك مكان القبيلة في ماضيك، رفضوا أن تكون العشيرة والانتماء إليها هي عنوانك البارز المقروء في الأذهان، فلماذا لا يرفضون أن تأخذ القرية هذا العنوان اليوم وترفعه على رؤوس الاشهاد. رفضوا الأحلاف والانتماء إليها في الماضى فلماذا لا يرفضون أحلاف المصالح والانتماء إلى الشرائح الاجتماعية المصطنعة في الحاضر. رفضوا ذلك التشتت والتمزق وعوامل الضعف في ماضيك وهم يرفضون بؤر التميز والانحياز الضيق والمصالح المشتركة في حاضرك.

فأنشد مع الشاعر:

وهَـلْ سَـأَلَ الماءُ فِى رَاحَتَيْك عُمَيْرُ الَّذِي يَسْتَقِي أمْ عُمَر؟!

www.mtenback.com

ولكل قاعدة شواذ[1]

بلادي بلادي فداك دمي.. نشيد حفظته واختزنته ذاكرتي الغضة آنذاك وكان هو العدد الصفر الذى بدأت به معلوماتى فحافظت عليه حيا متجددا إلى هذه الساعة، كان ذلك قبل ثلاثين عاما وكنا مجموعة من أبناء الاعراب متقاربي الشبه لا يميز بعضنا عن البعض الآخر شيء ذو بال.. نأتي نطرد كل صباح إلى المدرسة فنجد الشيخ عليا الكرانى قد سبق إلى فنائها الواسع يُحيي الطالب الأول ويثني على تبكيره ثم يرصه فى الصف ويقف أمامه بقامته التي لا تبرز كثيرا عن طلابه، يتكئ على جريدة من النخل خضراء ترك في نهايتها سعفات خضر كقادمة العقاب، يهش بها ولا يكاد يستعملها يهدد من لا ينتظم جيدا في الصف، يرص الأول منا كالطوبة وبعده الثاني والثالث والذي يليه حتى ترتص أجسام هشة من صغار البشر في صفوف منتظمة ترتعد بردا في كل صباح شتاء قارس تردد بأصوات لا تخلو من نشاز «بلادي بلادي» كان الشيخ حريصا على سماع هذا النشيد يطرب له وينفعل أحيانا على الرغم من تصنع الوقار فينشد معنا بلادي.. يحاول أن يتأكد بنفسه من أن كل طالب في مدرسته حفظ النشيد وأحسن فهمه.

أنشدته وحفظته وأنشده معي آلاف الطلاب في مدارسهم وكوَّنْتُ صورة جميلة لبلادي تصورت مدنها وقراها وجبالها وأوديتها وألبست ما لم أره من أرجائها صورة ما رأيت فكل واد فيها ممرع أخضر وكل جبل شامخ أشم وكل سهل دمث منبسط وكل مدينة مقدسة ناعمة وقورة وكل قرية كريمة مضيافة بارة وأصيلة، وكونت لها حدودا أوسع من إدراكي في ذلك الوقت.. كانت بلادي التي أنشدت لها هي الوحدة التي جمع أطرافها بعد الفرقة والانقسام عزم الرجال

(١) اليمامة ١٤٠٤/٤/٢٩ هـ - ١٩٨٤/١/١ م - عدد ٧٨٨.

www.mtenback.com

والتضحيات الكبيرة الخالدة على أرضها، كانت صورة بلادي التي أنشدت لها هي الماضي المشتت المملوء بالتناحر والانقسام المائج بالعصبية والقطرية المبعثرة في اتجاهه والمتناحر في رغبته والمتردد في إرادته، أما صورتها في الحاضر الذي أنشدت له فكانت هذا الكيان الكبير الشامخ المشرق بالسعادة لي ولكل منشد معي. كانت هذه الوحدة التي نظم عقد وحدتها صقر الجزيرة فأبرزها دولة وأمة انتزعها من براثن الشتات وعمل من أجلها حتى حققها واقعيا حيا، ولا أكتفي بذلك بل أجعل بلادي هذه قاعدة لبلاد أكبر وأشمل تمتد من الخليج إلى المحيط وأبعد من ذلك فأنشد لها بلادي بلادي.. ولم يخطر ببالي عندما حفظت هذا النشيد في طفولتي ولا بعد ذلك وحتى أمس واليوم أن بلادي هي ذلك الوادي الذي رأيت الدنيا فيه أول مرة ولا خطر ببالي أن بلادى هي المدينة التي ترعرت فيها وعشت في ربوعها أجمل أيام حياتي ولا ظننت أن بلادي التي أنشد لها كل صباح يمكن أن تكون تلك العيون الجارية والنخل الباسق الذى بعثه عبد الله بن الزبير واستولى عليه من غلب بعد ذلك، وما كان أهل بلادي هم أهل ذلك الوادي ولا تلك الصفوف المرصوصة التي تردد معي كل صباح النشيد في مدرستي.

بلادي كانت هذا الكيان الكبير ومن يموج على أديمه من حياة وناس وإن لم أرهم ولم أعرفهم.

هؤلاء الشباب الذين أنشدوا لها في كل قرية ومدينة ثم أخلصوا لخدمتها وتفانوا في ذلك هم أهل بلادي. فمنهم من هجر أمه وأباه وقريته من أجلها فالتصق بذرات ترابها الطيب وأرضها المعطاءة الكريمة يعمل لها.. ومنهم من تغرب السنوات الطوال لا ليملأ بطنا أو يكسب مالا كحال المغتربين دائما بل يترك المال لمن يجمعه فيها وهى زبرة مال ليعود وهو أقدر على خدمتها. فعاد وسهر وعمل وأنتج وهو ينشد لها نشيد الطفولة الذي تعلمه في مدرسته الأولى هازئا بالقلة من الناس العاقين للوطن الذين تجدهم اليوم في مقدمة الصفوف - بعد أن أعطاهم الوطن أكثر مما أعطوه - يظهرون جنوحا لأبناء القرية وألفة لزملاء الدراسة وبرا بهم، ويمارسون الانتماء الضيق على اسم الوطن الكبير.

www.mtenback.com

هذه الفئة حتى وإن كانت تجسد في تصرفاتها عقوقا لحق الوطن وجحدانا لفضل الأمة إلا أنها قليلة شاذة عن القاعدة ولكل قاعدة شواذ. وحق الوطن على كل بار من أبنائه أن يرصد هذه الفئة ويواجهها بعقوقها وينتقد تصرفاتها ويرفض أعمالها الخاطئة وميولها النفعية.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الظاهرة الاجتماعية[1]

الظاهرة كما يصفها علم الاجتماع هي تصرفات إنسانية تصل إلى درجة من الانتشار كافية لادراكها وتحديد مسارها في المجتمع ويفرزها سلوك يبدو قليلاً وقد يكون مقبولاً ثم يأخذ في الانتشار حتى يصير ظاهرة اجتماعية تلفت النظر إليها بقوة، وتمارسها فئة من الناس يقل أو يكثر عددها حسب قوة انتشار الظاهرة في المجتمع.

وإذا وصل الأمر بالظاهرة الاجتماعية حد البروز على سطح الواقع، أخذت حيزًا من تفكير الناس، فوجبت دراستها وتقويمها من منطلقات اجتماعية واسعة أو ضيقة حسب شيوع الظاهرة ونوعية الممارسة لها في حياة المجتمع الذي يواجه الظاهرة بالتقويم ثم القبول أو الرفض.

ولا أظن أنَّ عندنا ظاهرة اجتماعية وصلت إلى مرحلة الانجاز كظاهرة الواسطة التي بدأت تقوى وتستحوذ على الاهتمام والتفكير والنظر والتحليل والاستقراء، لأنها أصبحت حديث الناس اليومي والأمر الذي لا يختلف اثنان على أنه واقع. وقد اختلطت فيه الحقيقة والخيال والصالح وغيره والمقبول والمرفوض، وأصبح المجتمع يعيش هاجس الواسطة المؤثر في ذهنه، وقد ترتب على هذا الميل الذهني خطأ اجتماعي... ومفهوم دلالي بدأ يظهر في مجتمعنا بقناعات غير صحيحة عن الواسطة ومردودها الاجتماعي والمعنوي والنفسي أيضًا، وقد حاولت في بحث سيجد طريقه إلى القراء والمستمعين رصد الظاهرة ومعاينة آثارها[2] وما يترتب عليها من أشياء، وبحثت عن أسباب قبولها عندنا

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٦/٦ هـ - ١٩٨٩/١/١٣ م - عدد ٧٥٠٩.

(٢) لخصت هذا البحث في المحاضرة التي ألقيتها في النادي الأدبي في الرياض في ١٤١٢/٥/١٣ هـ.

www.mtenback.com

وقوتها في نفوسنا على الرغم من عملية الطرد العكسي المفترض حدوثه مع تطور التعليم ونمو الوعي وتقدم الادراك.

وقد وجدت أن عددًا من الكتاب تعرضوا للحديث عنها من زوايا مختلفة وبآراء متباينة وقد وصفوا في مقالاتهم بعض الأعراف الاجتماعية مثل الشفاعة وإصلاح ذات البين وتسهيل الإجراء الإداري في بعض القضايا وإنجاز ما يتعلق بمصالح الناس لدى الموظفين ورفع حاجة من لا يستطيع رفع حاجته إلى من يستطيع المساعدة في قضائها على أنها من الواسطة بل إن بعضهم وصف المساعدة في علاج المريض والعطف على الضعيف منها.

وفي رأيي أن كل ما تقدم أخلاق فاضلة وسلوك محمود وليس من الواسطة المذمومة.

لأن كل ما تقدم ضرورة اجتماعية لا يترتب عليها أَثَرَةً ولا حرمان ولا يحدث منها تجاوز حقوق عامة تضر بمصالح الآخرين أو مصلحة الوطن.

إن الواسطة التي يتحدث الناس عنها هي في الواقع المحسوبية والمحاباة بفرص مشاعة وهي التكتل الفئوي الذي باتت ظواهره تقوى في مجتمعنا وأصبح الحديث عنه يدور حول وضع مشاهد ظاهر ولم يعد هذا الوضع سرًّا على أحد لأنه تناول أسس التكوين الاجتماعي وعبر عنه ما نشاهده من نماذج انغلاقية، شرعت تظهر وتكبر حتى صار الحديث عنها مكشوفًا والمنافسة واضحة تتحدث بها الأعمال قبل الأقوال. . وأخذ الجدل يلح حول ما للمحسوبية والاقليمية من آثار سلبية على صورة التعامل بين الناس والحديث عن الدوافع إليها.

إنها ظاهرة غير صحية شكلتها سنو الطفرة وأفرزت التعلق بها خلفيات اجتماعية نمت بعيدًا عن ترويض العقل والعرف الاجتماعى الذي يصهر الكيان كله في وحدة متماسكة مؤثرة. والعمل بالمحسوبية ومسمياتها مخالفة صريحة للمتفق عليه من مثاليات التكوين وستنتج عنها آثار مستقبلية يكون

www.mtenback.com

للفعل غير الواعي الذي تباشره بعض الفئات رد فعل واع لا يسهل احتواؤه، لاسيما عندما يمارس ظاهرة المحسوبية قطاع لا يستهان به وإن قل عدد أفراده، وقد وجدت المحسوبية طريقها سهلاً إلى كثير من المؤسسات العامة والخاصة وهي آخذة فى النمو والازدياد إن لم تجد من يقف في وجهها بقوة ويردها على أعقابها.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

إنك مدعو للاستماع[1]

قبل عدد من السنين قرأت في صفحتك الطاهرة الرسائل التى بعثت بها إليّ عبر البريد المفتوح، وفيها قصائد غنائية أقرؤها أول مرة في حياتى، كنت مشغوفا بذكرك وترنيمة أهازيج الطرب في جنباتك، وما كنت أهتم بالتفاصيل الدقيقة لمقاطع الحياة التي أعيشها على ردهات التطلع للمستقبل، بل آخذ لك صورة كلية تعطى الناظر إليك تفاصيل القوام وامتداد العنق وانحناء أرنبة الشموخ، كانت هناك قصص عنك يغري بعضها بسحب الخيال وتمدد التصور لمن لا يدقق في الأبعاد المعروضة لعدسة الالتقاط ولا يعيد النظر في ظل الصورة. كنت أسمع دفاع الراضين عنك واتهام الغاضبين منك. وأفترض أن لكل فريق أسبابه التي أقنعته باتخاذ الموقف من منطلق الذات أو تفسير المعاناة.

لم تضق بالآراء والمناظرات والفلسفة العقلانية والتوجهات العاطفية. سجلت ذلك كله بأمانة لا تشوبها شوائب الأحداث ملأتْ الملاحظات العابرة والمتأنية صحائفك، وسجلتْ أرقامًا مرسومة وكلمات متقاطعة في مربعات مغلقة ومفتوحة.

في سوق الأحد وأيام الخميس شهدتَ الملحمة، وفي محطات الطريق ومواقف الانتظار كان لك رأي، وتحت دوحة السرح وعلى أوراق العضاة وأغصان السلم. تركت في سقف الغار حديثا وفي مهبط الوادي أثراً، لم تعمد إلى محو شيء من ذلك كله على الرغم مما يحمل من متناقضات الحقب الخوالي وفتات ماضي الأيام وأحداث العصور، تركت كل ذلك لأوهام المنجمين ولقراء الكف وعلماء الآثار وفلاسفة التاريخ.

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٣/٢٤ هـ - ١٩٨٨/١١/٣ م - عدد ٧٤٣٨.

www.mtenback.com

كان فيك العرب البائدة والباقية والعاربة والمستعربة والقحطانية والعدنانية[1]، والمهاجرون والأنصار، وسجلت يوم رحرحان وجَبَلَهَ وأيام قيس وتغلب، وأصغيت إلى مناظرة نجدة ونافع وخلاف عبد الله وعبد الملك، وجدل الحسن والغزال اتسع عطنك لذلك كله ولم تضجر.

وقد تجد نفسك في موقف المستمع مرة أخرى لأحاديث الناس وأحداث الحياة التي تمر ولا تعير الواقفين شيئًا من الاهتمام ولا تنظر إلى ما دون الأفق الممتد أمام خيال اللاهثين وراء سراب الأحلام، المتحدثين إليك بلغة مثل لغة هذه الرسائل، لا تعنى لكثير من القراء شيئًا.

وقد يعيد التاريخ نفسه فتسمع جدلاً أكثر منطقية وألطف مسلكا تنقله ألسنة عذبة البلاغ تدعي أن حبك سبب الانطلاق، وتسمع فئة من أبنائك أكثر وعيًا بواقع الحياة تهدي لك التحية قبل أن تنشد بيت القصيد.

وفئة أخرى تناجيك بهموم أيامها وتطلعات أحلامها وهي لا تستطيع نظم جملة واحدة سليمة التركيب، وفئة ثالثة تحدثك عما فعلتْ وما سوف تفعل وتصنف الحقوق قبل الواجبات وتذكر النفل قبل أداء الفريضة، سمعت منك ثم أعدّت الإجابة قبل أن تسمع طرح السؤال.

لقد غنت لك الأجيال في مرابع الحي القديم وردد النشيد جيل عاش على أديمك مع مطلع الآمال العريضة فيك. غنى لك أغنيات الحب في أيام الربيع وفرش على أرضك ورق البسباس، حفر الثرى بعد صباح ليلة ممطرة، ووقف ينتظر براد ليلة قادمة يُرى في صباحها طل منتظم التتابع يسقط منحدرًا فوق أغصان الطلح، ويستمع إلى إنشاد الرعاة عند طلوع الفجر أو قبيل غروب الشمس حين يعودون إلى مرابع الحي القديم يصبون في مسمعك أعذب الألحان.

---

(١) الإشارة هنا إلى أحداث تاريخية كان محور الخلاف فيها المصالح الذاتية والآراء الاجتهادية وكلها أضعفت الماضي المختلف عليه.

www.mtenback.com

إنك مدعو للاستماع والتأمل والنظر الدقيق في المسلمات المتفق على الكثير منها وإن شق الخلاف على ما بقي فقد يكون في اليوم ما لا يصلح للغد وقد يكون لك في كل يوم رأي وفي كل حادثة حديث.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الوصيـة[1]

بين مسافات خطو الزمن وانحدار مسير الأيام أكتب لك رسالة مشحونة بالحب المندفع أواره من حمم البركان الثائر في وهج العاطفة الرؤوم، الواعظة في بعض فقرات الخطاب المفتوح، والمتنصلة من تعنيف الوعظ في جمل وفقرات أخرى لم نتفق على مفرداتها.

أكتب لك على شرف التطلع وزفرة الاغتراب في دلالة غامضة المعنى بيني وبينك عسى أن تزيد جاذبية عامل الاستشعار وتقوى قدرة القراءة في نفسك لما بين السطرين، في هجعة الليل غير النائم في أحلام السائرين أقرأ لك من كتاب صحيح ليس فيه حديث منقطع، أشعر بخصوصية الرسائل إليك وأهمية التلقى الساكن والانفعال تحت درجة الصفر، أحترم الهمس في حقك وأصغي إلى ارتفاع الصوت من أجل أن تسمع مقطعا من جملة مرفوضة لا محل لها من الإعراب، أعيد فحص حاسة السمع حتى أتأكد من سلامتها في هذا الزمن قبل موعد الاقلاع.

أخبرني شيخ محب لك عض بيئته الجوع حتى العظم وأدرك في بعض الأيام آثار هذا العض المسعور. حدَّث من يعرف من أترابه كيف نازعته نفسه مرارا إلى الهجرة والغربة طلبا للمال وبحثا عن أسباب الرزق، وقد أبت كبرياؤه نوازع نفسه، فارتج عليه تدبيره وأخفق في اتخاذ القرار الصعب خشية أن تبكي عينه اليمنى قبل أن يرى البشر[2]، ويلتفت إليك حتى يبجع ليتا وأخدعا، صبر عليك من أجلك وعاش العوز والمتربة، رأى بعينه من يغوص للؤلؤ ومن

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٣/٢١ هـ - ١٩٨٨/١٠/٣١ م - عدد ٧٤٣٥.

(٢) انظر قصيدة الصَّمة القشيري فالإشارة هنا إليها.

www.mtenback.com

يستجير من جفائك بضفاف الأنهار وظل الأشاء، وعرف من يقطع البحر إلى الأمصار وكفى.

لم يلبث وهو في وهدة العمر وعجز الشيخوخة وانكماش الأمل أن لمح اللؤلؤ في أحشائك، وتفجرت الأنهار في أرضك وظلل الأشاء مخدع الرأس، وهفت رواد الأمصار إليك، رأى فرحتك بالعائدين يحملون بقية العنوان وآثار الدار، كنت كريما كما أنت، ففرحت بهم وفرشت لهم مكانا في صدر المنزل وفرقتهم في صفوف العائلة حتى تمتزج التجارب وتختلط الأوراق، وتنسي أيام الشتات.

وبدأ يحدث عنك في الحاضر والمستقبل واليوم وما بعده ويسدي النصح ويخلص في الوعظ، فدرّت في شدقية أخلاف الذكريات وحلب لبنا مرتفع الحموضة، عصبت الرخوة في إنائه وصار الارتفاع يوهم بالامتلاء، وانسل الصريح من تحت الرغوة إلى مسارب جانبية خفية الاتجاه، ولم ينته حديثه حتى رأى حلقا في صفوف العائلة ودوائرًا بين الصفين[1] فلم يستطع تجاوز النقيضين ولا تجاهل الحالين، فذكر أيام الماضي وأعاد عدَّها وما فعلت وسجل انطباع الشيوخ الصادق، وقصة العوز والبؤس والصبر عليهما مع ما فيهما من نقاوة تكشف معدن التحمل وتشع بنور التواضع وتدفع فى ملامس الصبر الطويل، ورأى الحاضر المملوء بوهم تحقيق الممكن وتهيئة المستحيل في زحمة الاندفاع غير الراشد في خيال الحالمين، أراد أن يقوم خطيبا يذكر عوائق السير في غابة القتاد، حرش ساقه، قدم عصاه، خبط الشجر أمامه، ضربته الأغصان من كل جانب، عرف استحالة الوصول إلى رش السحاب بعد اختلاطه مع مسيل غيل الوادى، نظر شزرا سكت قليلا، رجع خطوة، وتقدم أخرى، لم يشعر به أحد، تنحنح، وقطع الخطبة، وشرع يكتب الوصية. وأنشد مع الشاعر:

قد جئت معتذرًا ما في فمي خبر ... رجلاي أتعبها الترحال والسفر
ملت يداي تباريح الأسى ووعت ... عيناي قاتلها ما خانها بصر

---

(١) الإشارة هنا إلى الوضع الاجتماعي الذي ظهر عند فئة من الناس تحاول أن تبز حقوق الآخرين مستغلة الفرصة المتاحة لها دون غيرها من أبناء الأمة.

www.mtenback.com

على الغارب عقبة[1]

كتبت لك رسالة تصف مواقع الصوى في محطات الطريق المستقيم إلى غاية لا يتردد صداها في عوارض المحيط الصامت، ولا تصل بك إلى قمة السفح الزاحف حول مصب الوادي حتى لا يبعد مداك عن سماع الهاجس المتردد بين مسافات ذبذبة الصوت وإشارات التلقي، أعلنت لك - في حس رخيم ولغة هادئة الانسياب بطيئة المثول بين يديك - حجم القيم النابتة في صحرائك والقائمة في صفحات تاريخك الأبدي المنقوشة على معصم اليد اليمنى، الثابتة في سطورك ثبات الإيمان في وجدان يقظ، قادر على تحريك مسارات التاريخ حوله، يأخذك صدق المعاناة في ألق متميز الادراك، يبعد بك مسافة المأمن عن مطامن الانتظار لنفحة الكرم الحاتمي. . ويرفعك قليلاً عن مطامع الشبع الذي يعيش فيه من حولك، ويسقيك نهلاً يكفيك عن علة تقطع إليها مدارج الغرب[2]، الذي تزدحم عليه المناكب وتأخذه القوة في مستهل الغاية.

رفعت لك علامات الطريق آخذة في صعود المسلك ممتدة في آفاق عريضة المساحة، ليس فيها جهام، ولا تنظر إلى برق خُلَّب، يمطر السحاب فيها على منابت الكمء، وشجر العرار فتورق جنبات الوادي ويسيم الرعاة قطيع الضأن في هزيع الليل.

يتحقق فيك جلال ذات الطاعة، وحب الصافنات الجياد قبل غروب الشمس[3]، واحمرار الشفق الداكن هاربا من سديف الظلام، وتهب الرياح،

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٣/٢٥ هـ - ١٩٨٨/١/١٤ م - عدد ٧٤٣٩. العقبة أن يركب المسافر مرة ويمشي مرة أخرى.

(٢) بقية الماء الآسن بين البئر والحوض.

(٣) إشارة إلى آية قرآنية.

www.mtenback.com

فتدفع الزوابع دويل الحمض تحت عروق الأرطى، وترى أهلك يشعرون بضرورة الالتفات إلى مركز الدائرة الأول ويقررون أهمية الحديث عن سني الماضي. . وتشكل أساليب الجدل محاور الالتقاء على شيء معروف الدلالة، ومعنى قوى التمكين في ذاكرة التاريخ بعد ربط لا يطيل عقده الصامتون، وتسير قافلة الحديث المكرر دون أن تحمل زاد العودة إلى نقطة البداية عندما تجد الطريق أمامها مغلقا. . يغني الحداة ويرفعون الصوت فى قارعة الطريق، وينشد الشعراء معلقات منظومة على البحر المتقارب، ومجمهرات فيها نمطية الايقاع، ومذهبات تتحرك بها شفاه الصامتين تحت قبة الحياة المعلقة في جو المطامع، ويطرب النَّدي ويسمع من حضر وترفع الجلسة إلى فرصة قادمة.

لا ينظر أحد إلى مواطئ القدم في إدلاج الليل فتقع على شوك الهراس، وتضربها أغصان السمر، فتعيد السير بهدوء الخائفين، وتدفع أمامها بعصا التلمس حتى لا يتكرر الوقوع في المحظور، ثم تقف بعد انتهاء الجادة إلى رحبة كهف عريض له مخرج واحد[1] يعيد القادمين إلى الخلف مسافة العشية، تشعر بضياع الزمن بعد الاحساس القاسي بالندامة على سير غير مأمون العواقب قطعه ركب الأمل في هزيع الليل الآخر[2].

فقد رفض مالك بن الريب أخذ «الأخاوة» وشهر أبو حردبة سيفه في وجوه الكادحين، وأعلن الاحنف بن قيس أن الدهناء منطقة منزوعة، وأنشد الفرزدق قصيدة بلغت مائة بيت، ردَّ فيها ادّعاء جرير وأكّد أن الزبير وصل المدينة سالما فرفع المستمعون راية البراءة[3].

يأخذك تأنيب الضمير، وتعرف عيوب الشجاعة وتجعلها تهورًا، ومس جنون وضعف عقل، ينظر الناس إليك شزرًا فتغض الطرف وتدعي أنك من بني عامر، وتداني الخطو وترجع منكس الرأس بعد النشوة سيئة العواقب، فقد أشاح عنك المصفقون في الصف الأول بعد انتهاء الخطبة المرتجلة والمحاضرة

---

(١) لعله يعني الرأي الواحد.

(٢) يشير إلى ما يواجه الجادون من صور الإحباط.

(٣) هذه أحداث تاريخية لها دلالة حاضرة.

www.mtenback.com

الآتية في الأسبوع الثانى، وتقرأ الحقيقة خالية من رائحة المجاملة.

لكن لا تطيل الصمت فقد يكون في القدح بقية وعلى الغارب عقبة، وقد تكون الجادة آخذة إلى مورد شرب مزدحم أو روضة مختلط فيها الحوذان والحماط ونَور الأقحوان بعد مطرة مغيثة.

أقسم للناس كافة أنك صادق وأنك محب لكل الواردين، والصادرين على النهل والعلة وظمء الخمس[٤]، وأن أقسم بعضهم على غير ذلك فقد جربت آلة للتصديق بعد مرور الحاجة بعشرة أعوام فثبت ما اختلف عليه.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

(١) الخمس. فترة تغيبها الإبل عن الماء في أيام الصيف والمقصود هنا واضح، وقد ذكر الكميت الخمس في شعره فقال:

وأظماؤنا الأخماس فيما لديهم ومرتعنا فيهم ألاء وحرمل

www.mtenback.com

سأنيخ صيدح[1]

جاءت رسائلي إليك متأخرة بعض التأخير، أردت من تأخيرها عنك شوقك إليها وشعورك بالحاجة إلى قراءتها، وتحولت الزمن المناسب والفراغ المحمود غير معيد لك الصياغة، لم أكتشف فلسفة الأبوة فيك إلا متأخرًا، كان هذا المعنى في أذهان بعض الناس لا يعدو أولاد الفراش، ورحم المرأة، وصلب الرجل. أما أنت فمعنى الأبوة عندك شامل ومدلوله متعدد تمده إلى كل السائرين على قدم الحياة والناطقين بلغة الظن والحقيقة، وتريد أن تكون لك أبوة عامة لا تلغي خصوصيات الآباء والأمهات، فتحرص على بعث الرسائل وتريد ردًّا تصممه العقول وتحمله السواعد وتحكمه قوة الإرادة، وتعرضه أمام الناظرين، كما كان يفعل أبناؤك السابقون يوم يعودون إليك مكللين بالنصر يدفعون إلى أحضانك بالغنيمة، ويرددون أغاني الفوز حتى تخرج العواتق مشرئبات الأعناق تنكسر عواطفهن على صوت أنجشه[2].

لا أزعم أنه قد أنيخ الركب وسكت الحادي، وتحرك المزمار ودوّى الطبل في فراغ السكون المرتد بعد جلبة الحركة، وحملت إليك البضائع المزجاة، فشعرت بحرارة النبض الخفي الساكن فبدأت تعيد علينا الذكريات، تجرنا إلى صوامع الفلاسفة حينا وأودية الشعراء حينًا آخر، وإلى محاريب الوعاظ مرة وتجارب الشيوخ مرات أخرى، تغمس فينا أكسير الحياة طورًا وتجفف هذا الأكسير برياح

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٣/٢٠ هـ - ١٩٨٨/١٠/٣٠ م - عدد ٧٤٣٤.
صيدح ناقة الشاعر الأموي المعروف غيلان بن عقبة ذي الرمة. شهرتها جاءت من قوله:
سمعت الناس ينتجعون غيثا فقلت لصيدح: انتجعي بلالا
فتناقل الشعراء بعده ذلك وجعلوا اسم صيدح كناية عن المطالب وقد قال البهاء زهير:
وغيث سمعت الناس ينتجعونه فأين يُرى غيلان منه وصيدح

(٢) حادي النبي ﷺ

www.mtenback.com

التشاؤم أطوارًا متتالية، تبعث حب الحياة فينا ثم تنيمنا عنها، ترضع اللبأ لشقائق النعام وتحلب المصور[1] على منابت العرفج وتصب الصريح[2] على أطراف الثمام.

دويُّ الطبل يلهينا عن أحاديثك الممتعة فنلتفت إليه ونحن ندفع أقدامنا إلى الأمام ببقية ما في الروح من حركة الدفع الذاتي، مستمرين بالالتواء حتى تنحني أعناقنا وتصاب بالخدر المؤلم من نغم العود وانسياب المزمار.

قد يكون الصمت أجدر بالاتباع لأستر جهلي عنك وبعدي منك وقد عزمت على ذلك وهو أسلم وأحكم، لكن أحد أبنائك القدامى طرق ذاكرتي بصوته الشجي مرددا مع مسارب الرياح السالكة في وجدان العاشقين قوله:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وأظن أن ما استطيع هو أن أكتب لك رسالة وجدانية يحملها طابع غرام غير مباع، ختم ظرفه في اليوم العالمي لاتحاد العاشقين وألغي إرساله إلى يوم الذكرى[3]، تصهر الشعور في حرارة دفء معقولة لا تذيب اللحام ولا تكشف الطلاء، تنقل إليك عود الأراك بعد أن أسقط فصل الخريف أوراق السرح.

لن أحدثك عن كل ما في نفسي لك فذلك ما لا أستطيع، ولن أنشدك قصيدة فقدت دلالتها الاجتماعية والبلاغية، وفقدت حقها في الوزن والقافية مثلما فقد بعض بنيك ما تهبه للبعض الآخر، سأبثك أشجان الحاضر الذي أعيشه، والأمل الذي أرجوه لأولادك من العرائس القادمات، وسأرضى بحق ابن لأمة وقسمة التميمي لأخيه الهجين وإن كثرت خالاتي بالدهنا فقد كتب شريح فدلكة القضية[4].

(١) الحلوب: في آخر أيام حليبها.

(٢) الحليب الصافي بلا رغوة.

(٣) في اليوم العالمي للبريد يقوم هواة الطوابع بإرسال رسائل وهمية بظروف عليها طابع ذلك اليوم فتقوم إدارة البريد بختم الطابع ويبقى الظرف مع مرسله ليحتفظ بالطابع التذكاري.

(٤) أتى إلى شريح القاضي رجلان من تميم يسألانه عن ميراث أخيهما من أبيهما وأمه أمة فقال: حقه كحقكما في الأرث، فقالا: إنه هجين أي ابن أمة، فقال: حتى لو كان ذلك. فردا عليه ما أقلَّ خالاتك بالدَّهنَاءَ، لأنه لم يفضلهما على أخيهما الهجين.

www.mtenback.com

سأسمع من أحاديث المساء ما أعيده في أحلام الليل وسأتعلم من ضروب الاعجاز ما لا أحتاج إلا القليل منه في هذا الوقت والآن : سأنيخ صيدح وأركب القصوى[1] ولو حنت أطلال[2] وبكت الجرباء[3]. وأنشد مع الشاعر :

ألم تريا أطـــلال حنّت وشاقهـــا تفرقنـا يوم الحبيب على ظهـــر
وأسبل من جرباء دمـــع كأنه جمان أضاع السلك أجرته في سطر

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

(١) القصوى : ناقة الرسول ﷺ.
(٢) أطلال : ناقة عقيل بن علفة المري، انظر كتاب الغيور والصبور عن عقيل.
(٣) الجرباء : هي بنت عقيل بن علقة المري.

www.mtenback.com

رسالة إلى الإخوان[1]

أريد حياته ويريد قتلي
عذيري من خليل من مراد

هذا حالي وحال عدد من الأحباب الطيبين الذين يغضبون عليّ لأنني أغضب لهم، ويوحى إليهم أنني ضد مجد الآباء والأجداد فيؤمنون ويصدقون ويوجهون سهامهم إلى قلب ينبض بحبهم جميعا ويتمنى الخير لهم أنىٰ كانوا. وحجتهم أنني أقلل من مجد الآباء والأجداد الذي صاغوه في العامي، وأدعو لتركه للضياع كما يقولون.

وليس الأمر كذلك - بارك الله فيكم - فمجد الآباء والأجداد لنا جميعًا وقد صنعوه بأيديهم فوصفوه بألسنتهم «عيانا بيانًا» عندما كانت حياتهم لا تسمح بغيره وزمانهم لا يجود بأفضل منه فأثلوا هذا المجد الذي يفخر به أبناؤهم اليوم لكن عصر الآباء غير عصرنا ومجدهم غير مجدنا ولكل زمان دولة ورجال،عصرنا هو عصر العلم وعصر العمل وعصر الاستقرار والأمن الوارف واعتمادنا على مجد الآباء والأجداد لا يقدم لنا شيئا ينفعنا في حاضرنا.

والحزم - بارك الله فيكم - أن نصنع لأنفسنا مجدا يفخر به أبناؤنا حتى لا يسكتوا عندما يجدون أن جيلنا من غيرنا يتبوأ الصدارة في العلم والأدب والفكر ويعض على التعليم بالنواجذ ونحن نعيش على ما صنع آباؤنا في زمان غير زماننا، إنني - بارك الله فيكم - لا أحارب العامية والفكر العامي إلا خوفا عليكم من أن يصداكم عن سبيل التعليم ويحولا بينكم وبين مجد العلم الذي هو مجد عصركم وسمة زمانكم الذي صنع الرجال ورفع مكانهم، ولو كان

---

(١) اليمامة ١٤٠٥/٨/٤هـ - ١٩٨٥/٤/٢٤م - عدد ٨٥١.

www.mtenback.com

آباؤنا يعيشون هذا العصر لكان شأنهم شأن أبناء جيلهم وأمتهم ومعاصريهم وهو طلب العلم والتعليم الذي استوى فيه الغارب والسنام وكلها سنام ولله الحمد.

والعامية لا تضيف لكم جديدًا وكل واحد منا يعرف من العامية شعرًا ونثرًا ما يبزُّ به من حوله. فلماذا تخشون على ما في عصمتكم وما في قبضة أيديكم[1].

إن الاهتمام بهذا الفن يصدكم عن التعليم وهذا أحد أسباب قناعتي بضرره عليكم مع أسباب أخرى أخاطب بها من يعرفها.

غضبتم عليَّ - بارك الله فيكم - أن غضبت لكم وهجوتموني ولساني يلهث بفضلكم وقسوتم عليّ وقلبي يتقطع من أجلكم.

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

مع أنكم تعلمون أنني:

أخوكم ومولاكم وجار بيوتكم ومن قد ربى فيكم وعاشركم دهرا

ولم تسمعوا مني خلافا عندما كان الاهتمام بالعامية عفو الخاطر وحديث السمر وقصص المجلس بل لعلي أعرف من ذلك العامي مثل ما تعرفون وأطرب له مثلما تطربون ولم أرفع ضد عفوية الشعر صوتا ولم أجرد قلما ولم أطلب من أحد منكم أن يكفّ عما عَرَفَ وألف ولو قال كل يوم قصيدة لما رأيت في ذلك ضررًا إن شاء الله.

لكن عندما بدأ الأمر يأخذ منحىٰ جديدًا وأسلوبًا مقننا أنتم بعيدون عنه كل البعد وارتفعت أصوات تنادي بمنهجية الفكر العامي وتقنيته وتطالب بتسخير الممكن والمستحيل من أجله، وظهرت أصوات تدافع عن الثقافة العامية - وهى ليست الشعر - وتنادي بأن تكون الثقافة العامية هي الوجه البارز لفكر هذه الأمة وهذه البلاد مهد العربية ومنبع الإسلام والتي يأرز إليها الإيمان كما تأرز

(١) يدَّعون أنهم يخشون ضياع العامية إن لم يدونوها.

www.mtenback.com

الحية إلى جحرها وكشفت بعض هذه الدعوات عن إقليمية ضيقة وحمية للهجة القرية والإقليم وقاد هذه الحركة أصحاب فكر وعلم وأدب يعرفون نتائج ما يعملون ويدركون أبعاد ما يفعلون ويؤخذون على أخطائهم ويحاسبون، وظهر فى طوايا دعوتهم التدليس عليكم والتغرير بكم أو الغفلة وعدم إدراك خطر ما يقدمون عليه، قلت ما أعتقد ضرره وهو فكرهم وليس شعركم على ثقافتنا عندما رأيت ذلك كله وأنا أعرف ما وراء الأكمة وأعرف خطر الانسياق في هذا السبيل على لغة ديننا ووحدتنا وعلى ثقافة أمتنا وعلى فكر أجيالنا، وجدت أنه من حق الأمانة العلمية والنصح لله ولدينه ولأمة محمد بيان ما أعرف من خطر هذه الدعوة وخطر الاهتمام بها وكشفت عن بداياتها وبينت أن ذلك خطر على الثوابت في ثقافتنا العربية ووحدتنا وأعلنت ذلك محتسبا عند الله وفي سبيله ومستعينا بأصحاب الغيرة على كيان الأمة وبقادة الفكر وأهل الرأي ومطالبا إياهم بالنظر الواعي إلى حقيقة الأمر الذي يسعى إليه العامة دون علم بحقيقته ومرماه وأبعاده ومنشئه ودون إدراك لخطورته على تحويل اتجاه الأمة عن الثقافة العربية وحرمان أجيالهم المقبلة منها وجذبهم إلى ثقافات غربيّة أو صرفم إلى ثقافات محلية وإقليمية ضيقة وكل ذلك وسائل إلى غاية واحدة هي بناء السدود المنيعة بيننا وبين ثقافتنا العربية الإسلامية ولعل من له بعض الادراك والمعرفة يفهم ما يُردد بعض مفكري العوام عندما يقولون إنَّ منابع أصالتنا وأمجادنا وتاريخنا وجذورنا هي ما يحفظ لنا هذا العامي.

وأنتم - بارك الله فيكم - كالأنصار تكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع ورجائي أن - تكونوا لا عليّ ولا ليا - وتتركوني لأهل الفكر العامي أحاول مجاراتهم وأكشف أخطاءهم ومنهجية أسلوبهم وأن تقبلوني معكم مرددا للجميل من شعر الآباء والأجداد حافظا له مستمتعا به في حدود الحديث والمشافهة والرواية فهذه طبيعته وهذه وظيفته أما غير ذلك فهو إفساد له وعدوان عليه وعلى قيمته الفنية.

وأسفي عظيم أن أكون:

جررت على راجي الهوادة منهم ... وقد تلحق المولىٰ العنود الجرائر

www.mtenback.com

وأن أكون عبئًا ثقيلاً على كاهل المولىٰ العنود، وكلكم مولىٰ وكلكم قريب وهواي معكم جميعًا ومع كل من يعيش على تراب هذا الكيان الكبير من أبنائه.

ومرحبًا بكم راضين ومرحبًا بكم عاتبين ومرحباً بكم على كل حال.

وإني لأرجو أن تدركوا يوماً ما ما أعني وأن يأتي من أجيالكم من يعرف فيّ ما أنكرتم ويحفظ في ما ضيّعتم وهو حسبي ونعم الوكيل وسلام عليكم.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

لغة منقوطة[1]

بدأت رسائلي إليك بلا عنوان، وقد قرأت في قسمات وجهك صورًا من الاستغراب والرفض الخجول لهذه الجمل التي تحمل أصوات الحروف دون معناها، أراك تحدق في كل سطر وتنظر إلى كل كلمة وتلتفت يمينًا وشمالاً مستنجدًا بمن يستطيع فك رموز كلمات الحب وطلاسم السعادة، تشيح عني ساخرًا في بعض الأحيان، وتضيق ذرعًا بجرأتي المتناهية على قداسة إيمانك بلغة البيان، تصك أسنانك ثم تعفو وتقول: لعل له عذرًا وأنت تلوم، تبحث عن سبب لهذا الغموض يقنعك فلا تجد شيئًا معقولاً، وتأخذك الرحمة والشفقة في نصح التائهين فتأتي إليّ تقول:

اعتاد الناس في آرائهم أن يضعوا النقاط على الحروف ويجعلوا المبالغة في الوضوح سبيل الوصول إلى عقول الناس الذين تود أن يسمعوا ما تريد بلغة حالمة، لا يحصل فيها خلط يفسد المعنى ويبلد الاحساس ويسيء التفسير. فأجبتك بثقة الجاهل متعاليًا على النصيحة، أن اللغة التي توضع النقاط فيها على الحروف، كانت لغة مهملة لا ينقط منها حرف واحد في بداية عهدها، عندما كان أهلها صفوة يعرفون المراد من سياق الحديث ولحن القول واستمر حالها على هذا النهج حقبا من الزمن، وأجيالا متتابعة حتى اتسعت رقعتها على أديم الأرض وانتشرت في البلاد المعمورة ودخل في أبجديتها النقية الغريب والضعيف والمتطفل فتباينت قدرات الناس على فهم الحروف بلا نقاط، واختلف الادراك لمعنى الكلمات وأصبحت الرؤوس المتحركة في المعاني كثيرة، والعواطف النابضة بمعناها شتى، وتفرقت المدلولات في اتجاه الحياة الواسع

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٣/٢٣ هـ - ١٩٨٨/١١/٢ م - عدد ٧٤٣٧

www.mtenback.com

الذي ملأ الكون الصاخب، وزادت المعاني المتعارضة والمتشابهة والمختلفة في أكثر من هدف.

وطلب من أبجدية اللغة أن تجمع تلك المتناقضات، وقوي العمل بالتوجه الذهني الذي.. يملي على القراء ما لايراد وما لا يفهم مباشرة أو في لحن القول، وتردد المشترك من الألفاظ والأغراض وتباينت الأهداف، وشرع مستعمل اللغة المهملة يفكر بطريقة تبحث في العرض والجوهر وظهر في بعض الأحيان أن تفكيره الذي يصبه في قالب اللغة وحروف الأبجدية المشتركة يختلف عن تفكير غيره من أنداده مستعملي حروف الخطاب.

وامتد الزمن أمامه مسافات طويلة وحوى أفكارا كثيرة خلقتها أجيال عاشت الحياة قبله بعدد غير محدود من تعاقب السنين، فاختل فهمه لما يجد من ضروب المتشابه وضاق ذرعاً بالعبء الكبير والموروث المرهق الذي بدد تركيز الاستيعاب لديه، ولم يعد يفهم أبجدية اللغة المهملة ولا يميز بعضها من بعض فاخترع لها الجر، والنقط، والضبط والاعجام عندما وجد أن مصلحته في ألا يترك السائب بلا قيد والمتحرك بلا إمكانية سكون، والمنطلق بلا مواقع توقف وقرار.

كانت الحاجة عاملا قويًا وسببًا معقولاً في تحديد حرية الحروف المسكينة وفي ضيمها ووسمها الذي صار يميزها، وقسمت إلى فئات منها ما دمغ بنقطة فوق رأسه أو تحت خاصرته أو في جوفه حتى تميزه من غيره وتفرده عن أخوته، وتحدد مساره، ومنها ما دمغ باثنتين أو ثلاث بينما ترك جزء آخر منها عاريًا لا شية فيه ولا دمغ فوق رأسه[1].

كانت الأبجدية المنقوطة والمهملة فيما مضى تصور جملا مفهومة وكلمات معبرة ولغة يدرك الناس لها معنى وكان من الممكن أن تدوم لها هذه الصفة لو رفض المنقوط من أبجديتها التغير الذي أضيف إليه، لكن عاطفته غلبت عقله فتحرك الزهو بنفسه عندما رأى علامات النقط على جبينه وظن أن ذلك ميزة له من أخيه المهمل فسار الفرح بأعضائه ونسى ألم النقط والاعجام وجعل كل ما يعاني هو

(١) لعل المعنى هنا أصبح فيه شيء من الوضوح أكثر من ذي قبل.

www.mtenback.com

مصدر الرضا والقبول وأن ذلك نعمة عليه وعلى كل حرف منقوط لا يحظي بها غيره من بني جنسه.

ولهذا السبب فإني أكتب لك بلغة منقوطة والسلام.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الفصل الثاني

كلمات بيضاء

موقع الدكتور مرزوق تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

انج سعد فقد هلك سعيد[1]

مثل عربي قديم ذكرته وأنا أقرأ شيئًا يشبه هذا المثل عندنا، وليس في كلامي تورية ولا ضرب للأمثال لكنه كلام مباشر لا خفاء فيه، إن الشبه هو أحد المثقفين في بلادنا التي تمد خطوها وئيداً إلى مشرع الثقافة العالمية والمحلية لتنال حظها غير منقوص الجانب، وهو شاب مثقف وهب قدرة يحس بها جمال اللغة فيشرق معنى الاحساس في جوانحه الخضراء ويملأ عليه وجدانه المرهف وخياله الشاعر فينظم ذلك في جمل لا يدرك دلالتها كثير من الناس، وقد استعمل عقله، وسخر ملكات الإبداع لديه للغوص في ثقافتنا العربية الأصلية واحتضنته جامعاتنا، ولم يرغب أن يحتوي عقله وفكره حضارة غربية ولا اختار جامعة أجنبية، ولو شاء لكان له مثل أبناء جيله الذين تمددوا في رحاب واسعة من العالم واتصلوا بجامعاته ومراكز ثقافته.

هذا الشاب العارف بوظيفة الكلمة الفنية، قال رأيه ناقدا في مجال الأدب وكاتبا في الصحافة وشاعرا وناثرا وله أن يقول ذلك فهو قادر على الإبداع ولنا أن نرفض ما يقول أو نقبله.

وقد قرأت لسعيد قبل أن أراه ورأيته ولم ألقه واستمعت إليه ولم أدخل في نقاش معه، كان يكتب ما يعجب القراء وينظر فيما يكتب أشد الناس انصرافا عن مبدأ النقد والأدب، وكان في ما يطرح مثقفا ومحاورا جيداً يثير الحسد في نفوس أهل الصناعة.

وكان ما يرضيني عن الرجل ثقافته العربية الخالصة بل إن ما يبعث الإعجاب أن هذه الثقافة الواسعة والواعدة بنتها جامعاتنا الوطنية ونشأت على أرضنا

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٦/٢ هـ - ١٩٨٩/١/٩ م - عدد ٧٥٠٥.

www.mtenback.com

المقدسة ولم يكن لها مصدر غير مصدر ثقافتنا الخالدة فأكبرت جهده، وكنت استشهد بسعيد كلما قال القائلون: إن الجامعات العربية ومناهجها لا تخرج المبدعين ولا ترعى مواهب الموهوبين، وإن كل مبدع في البلاد العربية كان لثقافته ولإبداعه مصدر يبتعد به عنا، فهو خريج إحدى الجامعات المشهورة في الخارج، وعندما أغضب من هذا الادّعاء وأقلب صفحات عن أسماء لامعة في ثقافتنا الحاضرة لا أجد حجة أدحض بها ما يقول القائلون غير سعيد.

ولعل هذا سر رضاي عنه مع اختلافي معه، فهو أول أستاذ نقرؤه ونحتج به ونجعله شاهدًا على أن جامعاتنا ترعى الإبداع وفي مناهجها تعميق للأصالة لكن الفرحة لم تتم والحجة به لم تقو، فظهر في الأفق خطر الحرمان، وبدأنا نسمع مالا نصدق، وهل يصدق أحد أن يحرم الرجل ثمرات عقله وملكات إبداعه، وأن مؤسسة علمية تحافظ على مبدأ الأمانة والعدل يصح أن تستثمر جهوده وعقله حتى ينضج ثمر غرسه ثم تحصده بين يديه وتذرُه مع عواصف الريح.

من حقها ومن حقنا أن نرفض رأي الرجل في النقد ورأيه في البلاغة العربية وندحض كل حجة أتى بها بالحجة الأقوى، لكن ليس من حق أحد أن يحرق مكتسبات الآخرين الذهنية والفكرية وملكاتهم الإبداعية إذا كان رأيه لا يتفق مع ما يرون في قضايا الأدب والشعر والنقد والبلاغة، وإذا خيل إلينا أن سعيدا شهر علينا سيفا فمن حقنا أن نجرد سيوفنا ونستعين بالملايين من أمثالنا على أن تكون من نوع السيف الذي رفعه الرجل وهو سيف النقد الأدبي في وجوهنا ثم نناجزة حتى يتحقق العدل والمماثلة.. وليس فينا ضعف عن مقارعة الحجة بأختها وسوف ننتصر إذا كان الحق معنا. أما استعمال القوة الإدارية البعيدة عن العلم والموضوعية فهي لا تليق بالمؤسسات الأكاديمية والتربوية.

إن هذه البلاد حفظها الله وحفظ أهلها لم يسبق أن جعلت الحرمان نصيبًا لأحد من أبنائها، ولم يذكر في تاريخها أنها سلكت غير مسلك العدل. إنني لا أعرف سعيدًا هذا معرفة شخصية ولا اتفق معه في كل شيء بل إنني أقف منه مثل موقف الآخرين، لكن هناك تقاليد علمية ومبادئ نتفق عليها، وهناك

www.mtenback.com

أسس نؤمن بها ولا نريد أن يختل الميزان العادل فيها.

إن الدرجة العلمية التي استحقها الرجل بعلمه وانطبقت عليها المقاييس المنهجية كاملة، ومنحتها له هيئات أكاديمية مسؤولة لا يجوز لأحد أن يحرمه منها، ولو تم الحرمان[1] لكان بداية مؤسفة في تاريخ جامعاتنا كلها.

ونحن مع ذلك نحترم آراء شخصيات لها في نفوسنا موقع عظيم ولها في جامعاتنا مكانة رائدة ونحن متأكدون أن ريادتها ومكانتها العلمية تتسعان للرأي والرأي الآخر في حدود أدب الإسلام وسلوك المسلم ومقاصد الشريعة. وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

(١) تم حرمانه فعلاً وألغيت شهادته بقرار إداري بحت.

www.mtenback.com

احتمال الخطأ[1]

لو قيل لإنسان ما في مجتمع كمجتمعنا : إنك معصوم وغير جائز عليك الخطأ في تصرفاتك وفي أقوالك وأفعالك وفي إرادتك وفيما تحب أن تراه لأنكر عليك هذا القول أشد الانكار، وأخبرك بتواضع جم ودماثة خلق أن إدعاء العصمة من الخطأ أمر صعب ومطلب عسير لا يستطيعه أحد من الناس وأن هذا الذي رأيته عليه هو طلب الكمال الذي أخذ به نفسه. وأما العصمة فمن حقوق الأنبياء والمرسلين ولا يطمع بها طامع ولا يجرؤ من وهبه الله مثقال ذرة من عقل أن يدعى لنفسه شيئًا من ذلك. وقال لك أنه بشر يجوز عليه الخطأ والنسيان كعامة البشر، وأن أعمال الناس وأقوالهم وأفعالهم عرضة للخطأ وللصواب ومحتملة للأمرين معاً، وما هو إلا واحد من هؤلاء الناس الذين يحدثك عنهم، وأنهى حديثه إليك بتمتمة واستغفار من هذا الظن الذي ظننت به والعصمة التي ألقيتها عليه.

وقد تكون طيب القلب شعاع النفس سريع التصديق تعتقد بقلبك ما تسمع بأذنك وتحمل الناس على كل محمل حسن فيؤثر فيك هذا التواضع الجم وهذا الخلق الرفيع ويكبر الرجل في نفسك ويجلّ ويعظم ولا تملك تحت هذا التأثير إلا أن تبتهل إلى الله أن يكثر من أمثاله.

وقد تكون جريئا مشاكسا تريد على ما يقول برهانا فتعمد إلى ذكر بعض أخطاء الفئة التي هو منها وتنتقد بعض تصرفات الجماعة التي ينتسب إليها فلا تجد إلا الموافقة والاعتراف بما تقول وأن الخطأ ممكن، وأنه قد حاول ولكن أفسد الناس عليه اجتهاده، وقد يظهر الحماس لما تدعو إليه ويضيف إلى معلوماتك جديدًا لا تعرفه - عن أخطاء الناس وهو داخل في جملتهم - ويخبرك

(١) اليمامة ١٤٠٣/١٢/٢٨ هـ - ١٩٨٣/١٠/٥ م - عدد ٧٧١.

www.mtenback.com

بأسرار تجهلها، ويشعرك بمنتهى التعاطف مع وجهة نظرك التي أبديت، وأنه يقدر نقدك الهادف البناء في رأيه ويود لو تحقق هذا الذي يرجوه من الكمال. حتى تقتنع في قرارة نفسك أن قاعدة العصمة من الخطأ ثابتة ومسلم بها وأنها من حق الأنبياء وأمَّا ماسواهم فخطاؤون.

لكن إن أوصلك أحد من الناس إلى ما يشبه هذه القناعة فثق أن هذا السمت الذي غرك به والاعتراف باحتمال الخطأ، يدوم مادام الأمر تعميما لم يحدد، ومادام المخطئ غير معين الذات أو المكانة أو مادام الخطأ ينسب إجمالا لا تفصيلا ويلقى على شريحة من الناس أو تدمغ به فئة منهم، وستجد أن هذه القناعة المسلم بها والمتعارف عليها سرعان ما تهتز من أصلها ويصيبها الشك والانتكاس متى ما حاولت أن تصحح لشخص بعينه مفهوما خاطئا يعتقده أو إذا رأيت رأيًا يخالف رأيه، أو حققت له خطأ قد وقع فيه ونسبته إليه عند هذا الحد تعرف أن العصمة ليست خاصة بأحد بل هي حق مشاع لكل الناس.

www.mtenback.com

حدود المجاملة[1]

التعامل مع الناس يعد من أصعب الأشياء ومن أكثرها تعقيدًا، وقلّ من ينجح في إرضاء السواد الكثير من أصدقائه وزملائه ومن تربطه به رابطة أو تفرض الظروف عليه التعامل معه وقد قال المثل: «رضى الناس غاية لا تدرك»، ولهذا فإن الناس لا يجمعون على شيء في الحياة ولا يتفقون على موقف معين وكلما يطمح إليه الإنسان أن يكون مقبول التعامل مع عدد من المجتمع وغير عدو لعدد آخر، ولهذا السبب احتجنا في قاموس حياتنا المعاصرة إلى ترديد كلمات مثل المجاملة واللين والمرونة وحسن القول ولطف الاستماع والصمت عند اللزوم.

وأطلقناها على الأعمال والأقوال والأفعال التي يقوم بها بعض من يعيش في خضم المجتمع فيحاول أن يترك للأفكار والآراء التي لا يوافق عليها الآخرون حرية المرور خلال مسام هذه الكلمات المهذبة وتحت مظلتها الدافئة بسلام لأن الإنسان لابد أن يتقبل بعض ما يفرض عليه مجتمعه من أفكار قد لا يوافق عليها وآراء قد لا تكون مطابقة لآرائه الخاصة وفلسفته في الحياة فينحني لبعض المواضعات الاجتماعية التي تسود في بيئته رضيها أو قسر عليها وعلى الانحناء أمام تيارها الجارف فهو يحب أن يعيش مع من حوله بالأخلاق الفاضلة ولا يستطيع الرفض الصريح القاطع للآراء إذا كانت في حدود العادات والتقاليد فينقاد آخذا بمبدأ المجاملة والمرونة.

فهل كل ما يراه أغلب الناس أمر مقبول وصالح ومطلوب فيه الأخذ بالمرونة والمجاملة؟ الجواب لا بكل تأكيد، لأن المجتمع لا يصفي الأفكار ولا ينتقي

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٥/٢٩ هـ - ١٩٨٩/١/٧ م - عدد ٧٥٠٣.

www.mtenback.com

جميل العادات وطيب المعاملة وحسن السلوك لكل أفراده ويستبعد ما سوى ذلك.

والعادات والتقاليد الاجتماعية موروثات فيها ما تجب المحافظة عليه والتمسك به إلى النهاية لأنه صالح مستمر صلاحه لا يؤثر فيه الزمن ولا تقلب الأحوال وفيها ما يجب التخلي عنه أو تعديله بما يوافق جديد الحياة ويلائم ظروف المجتمع التي يعيشها أو يمر بها، وفيها ما يجب تركه والابتعاد عنه، ولعلنا نوافق على هذا الرأي أو أكثرنا يوافق عليه..

ونحن لنا عادات قيمة وأخلاق محمودة كريمة ورثناها منذ القدم هي الصراحة والصدق ووضع الأمر موضعه وإعطاء كل ذي حق حقه وحجمه الذي يليق به دون مبالغة في جوانب الأمر أو بخس له.. والثناء على العمل الطيب من عاداتنا الحسنة ولو صغر عامله والإعراض عن الرديء ونقده وتقويمه مهما كان مصدره. ولم يعرف عن عادات هذا المجتمع الطيب الغلو والابتعاد عن أرض الواقع الذي يعيش عليه الناس.

إلا أنه ظهر في بعض الأحوال ما يدل على ضعف استقرار هذه العادات الطيبة أمام مدّ المجاملات وما يسمى المرونة وحسن التعامل وقويت أسباب المجاملة وحلت محل الصراحة النافعة وجاءت المرونة لتقف مكان الموقف الناصح الموجه المرشد، والثناء والمدح محل التقويم والنقد الهادف البناء، ومسير حياتنا الثقافية والاجتماعية لا يحتاج في هذا الوقت إلى مزيد من المجاملات بقدر ما يحتاج إلى الإرشاد والتقويم الذي يبني ويصحح ما يعتري عمل المرء من خطأ أو نقص ويلفت النظر إلى مواضع الاهتمام والعناية، فينال العمل الجيد الثناء والتشجيع الذي يبعث على المزيد من الإنتاج المفيد ويعرض عما لا نفع فيه.

www.mtenback.com

الكتاب لا يقرأ من عنوانه[1]

الكتاب يقرأ من عنوانه مثل قديم عرفه الناس، مفترضين أن عنوان الكتاب بوابة الدخول إلى ميدانه ودليل على ما يحوي السفر الثمين من كنز، وإذا كان الكتاب مقروءا من عنوانه كما يقول المثل فإن دلالة العنوان واختياره بدقة تعد أمرا شاقا على المؤلف الذي يحاول ألاّ يكون هناك تناقض أو بعد بين عنوان الكتاب وموضوعه، ويبذل المؤلف جهدا كبيرا في اختياره وقرب دلالته ومحاولة أن يكون العنوان مطابقًا للموضوع.

ولكن القليل من الكتب هي التي حظيت باختيار موفق لعنوانها من حيث قصره وصدقه واختصار معناه، وكان المؤلف في الماضي يحرص على أن يكون العنوان جملة لا تزيد كلماتها عن ثلاث أو أربع، ويظهر اجتهاد المؤلفين الأولين وما يبذلون من تفكير في حسن اختيار العنوانات التي حملتها إلينا مؤلفاتهم، وقد يحتاج ذلك منهم إلى استشارة الأصدقاء والتردد في بعض الأحيان في الاختيار حتى يتم الكتاب وقد ينتهي تأليف الكتاب الجامع دون أن يوضع له عنوان كما هو معروف في كتاب سيبويه.

ونعرف أن بعض أشهر الكتب لا تحمل في عنوانها أكثر من كلمة واحدة عرف بها الكتاب مثل العمدة لابن رشيق والأغاني لأبي فرج الأصفهاني في الأدب والأم للشافعي في الفقه والخراج لأبي يوسف والموطأ للإمام مالك وفي عنوانات الكتب القديمة ما يتكون من كلمتين أو ثلاث مثل العقد الفريد لابن عبد ربه ويتيمة الدهر للثعالبي وأدب الكاتب لابن قتيبة مع جملة إيضاحية.

أما النوع الثالث من عنوانات الكتب وهو الطويل منها فإن الزمن يختصره

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٦/١ هـ - ١٩٨٩/٨/١ م - عدد ٧٥٠٤.

www.mtenback.com

حتى يصبح كلمة واحدة ويجعل بقية العنوان تفسيرا لها وتوضيحا لدلالتها مثل الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة للشنتمري وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب فقد اختزلا إلى الذخيرة والخزانة بينما حملت كتب قيمة في تراثنا عنوانات مسجوعة مثل معجم ما استعجم للبكري، والإنصاف في مسائل الخلاف وغيرها مما لا يمكن حصره.

وليس فيما عرضنا من أسماء الكتب ما يقرأ من عنوانه كما هو معروف ولا ما يحمل الدلالة الواضحة على الموضوع الذي يحتويه ولذا احتاج بعض المؤلفين إلى شرح العنوان بجملة تالية تحدد الموضوع العام الذي يدور حوله الكتاب، وهذا ينطبق على المؤلفات الحديثة التي أصبحت تأخذ عنوانات عريضة وعامة لا تهدي إلى المقصود مما وضعت له، بينما الحاجة ماسة في هذا العصر الذي تفجرت فيه سيول المعلومات إلى قرب عنوان الكتاب من موضوعة لتحديد هويته بدقة، وسبب هذه الحاجة أن مراكز نشر الكتاب وتوزيعه أصبحت تعتمد في التسويق والعرض على قوائم العنوانات التي تصدرها وتعلنها للناس وقد يتصفح القارئ عنوانا لكتاب يظنه في موضوع يريده ويهتم به فيطلب الكتاب ويدفع الثمن ويفاجأ بوصول كتاب يظنه في الأدب وهو في التاريخ، أو في السيرة وهو يظنه في الأمثال.

إن الكتاب لم يعد يقرأ من عنوانه ولم يعد يحمل عنوانا دالا على موضوعه الأمر الذي سمح للناشرين أن يحلبوا جيوب القراء بعنوانات لا تصدق وبكتب لا تقرأ من عنوانها. والسبب هو أن بعض المؤلفين يطمع في انتشار مؤلفاته انتشارا يرضيه عنها فيختار عنوانا غير دقيق لها، كما أن بعضهم يحرص على الكسب المادي واستثمار الكتاب للربح ومن مصلحة هذا النوع من المؤلفين أن تكون الكتب غير دقيقة في عنوانها وما يحمل العنوان من دلالة.

وآخر الأسباب هو رغبة المؤلف أن تكون له قائمة طويلة من أسماء الكتب من تأليفه وتحت اسمه فيتحول الأمر عنده تحت إلحاح هذه الرغبة إلى توليد كتب بعنوانات كثيرة، وما هي في الحقيقة إلا عناوين فصول كتاب واحد أصبحت كتبا، فيصير كل فصل في الكتاب عنوانا لكتاب جديد دون تغيير الموضوع

www.mtenback.com

إلا ما يحصل من تقديم وتأخير في الفصول والعنوانات ذات الموضوع الواحد، وقد انتشر هذا النوع الأخير في بعض الأوساط الأكاديمية وعند بعض أساتذة الجامعات العربية وهو أسوأ ما تتعرض له صناعة التأليف من آفات..

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

مدرسة الحياة[1]

قبل سنوات بدأ الناس يسألون عن الشهادة عندما يطلبون العمل أو الوظيفة وكان جواب من لا يحمل شيئا شهادة التوحيد تعريضا بشهادة دار التوحيد وقصدا لغيرها، وأقرأ في كثير من المقابلات في الوقت الحاضر عبارة جميلة يقررها بعض الذين يحشرون بأسئلة الصحافة ويحاطون بأضواء الإعجاب.. من أين تخرجت؟ فيرد المسؤول: من مدرسة الحياة.

ولا أذكر بالتحديد متى قرأت هذه العبارة أول مرة ولا من قالها ابتداء حتى أحدد هويتها وأنسبها إلى صاحبها المبدع لها ليحفظ له حق الاختراع.. لكنني قرأتها مرات مكررة، وفي كل مرة أراها وتقع تحت نظري أشعر أنها جديدة، وأن التكرار لم يجفف طعم الحياة في شرايينها، بل بقيت صادقة معبرة قوية لها دلالة خاصة غير الدلالة الايحائية، بأنها هروب من الإجابة المخصصة للسؤال.

والسؤال في فحواه تحقيق الغاية وهي النجاح وإن لم يدخل الناجحون مدرسة ولم يعرفوا جامعة، فكانت الحياة الواسعة ميدانهم الذي مارسوا فيه ملكات الإبداع وحققوا النجاح الذي حققه من تخرج من المدرسة والجامعة، ولغز العبارة الجميل جاء من أن التجارب التي يعيشها الإنسان على هذه الحياة مدرسة عملية يقرأ في منهجها ما لا تحيط به من تجارب الأساتذة وأحداث التاريخ وعبر الزمان ويبدأ التطبيق العملي قبل التنظير له ويغيش الواقع قبل وصفه والأهم من ذلك أن تجاربه الذاتية هي مرجعيته التي يعود إليها عند الحاجة فيكون في تلك التجارب ما يبعده عن الخطأ ويقوده إلى النجاح، ويحقق الغاية التي يسعى إليها ويحقق الغرض نفسه الذي يحققه حامل الشهادة وخريج الجامعة.

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٦/٣هـ - ١٩٨٩/١/١٠م - عدد ٧٥٠٦.

www.mtenback.com

إن مدرسة الحياة هي التي يتخرج منها الناجحون حقا بينما يخفق في بعض الأحيان خريجو المدارس والجامعات في أولى خطوات السير بعد التخرج وقد لا يكون النجاح في المدرسة مؤشرا صادقا على النجاح فيما بعد كما يقول الشاعر:

وكم منجب في تلقي الدروس تلقى الحيـاة ولـم ينجب

إن مدرسة الحياة هي مكان النجاح الذي تظهر فيه عصامية الإنسان القادر على السير بذاتيته ومدارك عقله وبعد خطوه لا تلك التي تحدد فيها مقاسات الخطو وتفرض صور من التلقين والإعادة والتكرار وقد يكون التوفيق والنجاح للمرء عندما يحسن الاختيار من كلتا المدرستين فيكمل التأهيل ويأخذ من كل منهما ما يناسب حاله ويوافق هواه، وتبقى الحياة هي المدرسة التي لا تغلق أبوابها بوجه طالب المعرفة ولا تضع الشروط للقبول ولا تحدد سنا ولا وقتا، فما أكثر طلاب مدرسة الحياة عسى أن يكثر الناجحون فيها من أبناء هذه الأمة.

لكن النجاح في الحياة لا يأتي عبثا ولا تعمل الصدفة فيه إلا ما قل وندر، وليس في هذا الوقت الذي نعيشه أمل في أن تكون الحياة وحدها مدرسة للنجاح ومناطا له لأن سرعة التغير تسابق التجارب الحياتية وتربك التجربة الذاتية للفرد غير المؤهل لضروريات التغير الحادث، بل إن من تجارب العلوم والاختراعات ما يجعل خريجي الجامعات وحاملي الشهادات العليا شبه أميين فيما يستجد فيها من تجارب وعلوم سريعة مثل الحاسب الآلى «الكمبيوتر» الحادث في حياة الناس وفي مناهج التعليم والمعرفة اليوم، فمن يحمل أرقى الشهادات وأدق التخصصات قبل عشرين عاما سيصبح شبه أمي فى هذا العلم إذا لم يبدأ معه وبه يهيئ نفسه ليكون طالبا في كل مراحل حياته جادا في جميع الأطوار وتحت كل المتغيرات.

www.mtenback.com

الرسائل الأدبية[1]

للرسائل الأدبية والفنية التي عرفها تاريخ الأدب العربي في ثقافتنا وظيفة تعليمية تحبر من أجلها وتكتب لتحيي بها بعض الأغراض ومنها الاستمتاع الفني في قوة سبكها وجمال عبارتها وصقل وجدان القارئ لها لتشغل فيه جذوة حب الأدب ورصانة الذوق، كما تحرك في نفسه من جانب آخر ملكة المحاكاة للعمل الابداعي الأدبي، فيحاول المرء قراءة ما يقع بين يديه من نماذج الرسائل الأدبية فيعجب بها وتنطلق أقلام شداة الأدب محاولة تقليد الرسائل في قوة تصوير الخيال الذي تحمله والعواطف التي تعرضها، وقد يكون من الرسائل الجميلة ذات الدلالة الاجتماعية ما يدفع إلى استيعاب بعض القضايا التي لا تعبر عنها النصائح التقريرية ولا تحيط بها المواعظ المنبرية.

وإذا كانت الرسائل الأدبية تتجاوز العبارات المباشرة فقد يكون في مضمونها معنى سام تشير إليه وتدور حوله وتوحي إلى قرائها بفضله وتدفع بهم إلى مباشرته دون أن يشعروا بذلك الأسلوب الآمر الذي تتصف به بعض الجمل الموجهة والالزامية التي يتناولها الخطاب المباشر الذي تنفر منه النفوس ولا تقبله لما ركب في الطبع من استثقال الأساليب التقريرية.

كما أن الكاتب في بعض الأحيان لا يستطيع التعبير عما في نفسه مراعاة للتقاليد الاجتماعية أو مداراة للشعور لدى الآخرين فيلجأ إلى إلباس معناه الذي يريد طرحه ثوب الأدب ويضفي عليه جمال الأسلوب فيخرج من حرج ما يحيط به إلى رحابة العرض وسلامة القصد، فيعلّم الأدب والذوق بلا مواجهة مكشوفة، وينمي حب القراءة لدى المستمعين الذين يعشقون الجمال في اللغة

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٦/٤ هـ - ١٩٨٩/١/١١ م - عدد ٧٥٠٧.

www.mtenback.com

والحسن في العرض، وقد يأخذ الوطن في بعض الرسائل صورة المعشوقة فيتحدث الكاتب عن شعور الحب وفيض الوجدان فيصهر في حبه كل الصفات الجميلة، ويرفع صورته في خيال الهائمين بحبه، فيهمس في كل عبارة يمليها إلى مناجاة الروح ويوميء إلى كل ظاهرة بلغة حالمة يمتد مدى اتساعها أمامه كامتداد الوطن الذي يعيش فيه.

وقد ينسى الأديب في بعض الأحيان أنه يكتب رسالة فنية فينفعل مع أحداث ما يتراءى له من العطاءات الخالدة ويصهر شعوره الذاتي في بعض رسائله ويسوق تجاربه الشخصية بشكل تصويري وبهالة من الخيال، وقد يسبغ على ذلك كله روح المرح والسلوة فيلهو المتابع بعض الأحيان بجملة خافتة المعنى قد يكون فيها مفتاح السر الغامض الذي جعل الأديب ينشيء الرسالة.

وقد يكشف الأديب في رسائله الفنية عن أسرار نفسه وبواعث حب الجمال لديه، ويظهر في ذلك تفوقه في ضروب من الأساليب التي يأتي عليها أثناء عرضه للحياة في صور رائعة البيان قوية السبك يكرر في مقاطعها جملا فيها حركة الحياة من حوله وصورة الناس الذين يساهمون في صنع الجمال في نفسه ورغبة الكتابة لديه، وقد تكون أجمل صورة ترسمها الرسائل الأدبية في وجدان القراء هي صورة المعاناة اليومية للإنسان المرح أو غير المبالي في مشقات الحياة وآلامها، لكن ما لا خلاف عليه أن وقتنا الحاضر لا يساعد على الصياغة الفنية في الرسالة ولا يساعد على تحبيرها، ولا يجد المبدع وقتا مناسبا ينسى فيه آلام العالم في نفسه ومن حوله حتى يتفرغ لتحبير الرسائل، وتجويد لغة الخطاب لأن الناس يظنون أن الوقت المخصص للهو البريء الذى تقدمه وسائل الخطاب الحديثة لا يكلفهم عناء النظر فى جمال الأسلوب وروائع الابداع المكتوب، فتبقى الرسائل الأدبية مغلقة الجانب ويبقى كاتبها في الوقت الحاضر مهملا في زاوية التجاوز.

www.mtenback.com

التأليف الوصفي[1]

كنت أتصفح كتابا حديث التأليف، موضوعه استعراض الثقافة العربية ومصادرها الأصلية ومحتواها العقلي والفلسفي، وكان المؤلف منساقا مع تتابع العصور التي نمت فيها الثقافة العربية والمؤثرات فيها التي كونت معينها الذي شغل المتابعين سعة مداه وابتعاد شاطئيه عن الغبة السحيقة التى كوّنت بؤرة الثقافة وصارت مرتكز الاهتمام بعد أن اكتمل النمو وتميزت فروع المعرفة الإنسانية.

تابعت المؤلف وهو يموج في محيط هذه الثقافة لا ليسبر غوره ولا ليخوص فيه كي يستخرج ما يفيد قراء الكتاب وينفعهم ويقرب إليهم ما تباعد عنهم، بل ليأخذ في عرض الثقافة الإسلامية على أنها كمّ متراكم هائل لا يستطيع المبتدئ الاقتراب من شاطئه ولا يقدم على الخوض فيه إلّا السباح الماهر الذي يشق عباب البحر الزاخر دون خوف ولا وجل. كانت عبارات المؤلف قائمة على التهويل والتحذير بألّا يلج بوابة الثقافة العربية غير أمثاله الذين تسلحوا بسلاح العلم على حد قوله، وكنت أسير معه في مؤلفه على أن يصل بي وبقرائه إلى بيت القصيد، من التأليف في هذا الموضوع الحساس والشائك كما يصفه، ولكنني فوجئت بالخاتمة بعد خمسين وثلاثمائة صفحة تعلن النهاية للكتاب، قبل أن يطرح رأيا عمليا يهدي مريد الثقافة إلى وذم الدلو، ويدخل بطلاب المعرفة إلى بوابة الدخول الآمن والطريق المستقيم بدلا من رفع إشارات التحذير والتخويف في كل منعطف وعند كل نقطة توقف.

إن عملية الوصف الخارجي الذي حاق بالثقافة العربية بأقلام بعض من

---

(١) الرياض ١٤٠٩/٥/٥ هـ - ١٩٨٩/١٢ م - عدد ٧٥٠٨.

www.mtenback.com

يدّعون المعرفة والعلم أصبحت ظاهرة تستحق إعادة النظر بعد أن أصبح هذا المجال هو الميدان السهل الذي يقدم عليه المؤلفون، كما أن فهرست مضامين الثقافة أصبحت غرضا للمؤلفين دون أن يسألوا عما قدموا من جديد للقارئ وما أدركوا هم من الثقافة في مثل مؤلفاتهم التي لا تضيف غير نسخة مكررة من التراث.

ثم إن السرد الممل لبعض القضايا الهامشية فى تاريخ الثقافة الإسلامية أمر يزيد أمية قراء بعض المؤلفات ويصيبهم بعملية سوء الهضم لحركة التأليف وأهدافها، وكأن مثل هذه المؤلفات استهزاء بمنهج المعرفة العامة يغلق به باب التنوير الذي يفترض أنه هو الحافز إلى معاناة التأليف، وقد أصبح التأليف بلا موضوع واللزق - إذا صح هذا التعبير - سمة بارزة في حركة الثقافة في الوقت الراهن، وصار تجميع مأثور الثقافة وإن تنافرت أبواب ما يجمع غرضا سهل المنال، وصار الكتاب المؤلف على هذا المنهج بطاقة تحمل اسم المؤلف وعنوانه وصورته أيضا ونبذة عن حياته، ولا تحمل غير ذلك كثيرا.

وأصبح المثل الذّي يقول العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق صادقا على الكتاب المعروض للتداول، والقراء ليسوا قادرين جميعا على الانتقاء واختيار ما يلبي حاجتهم للاطلاع ويشبع تطلعاتهم للمعرفة ولا كل كتاب يحمل عنوانا جذابا صالحا لأن يكون مرجعا ثقافيا.

وليس أمامنا لعلاج ظاهرة التأليف السردي والاملاء الوصفي وفهرست مضامين الحضارة العربية وثقافتها إلا أن توجد مؤسسة علمية تكون مهمتها نشر الكتاب لقيمته الثقافية وتوزيعه على هذا الأساس حتى يوجد البديل الجيد الصالح للنشر وللقراءة.

www.mtenback.com

النصر نشوة[1]

أيام الأسبوع الماضي كانت من الأيام المذكورة.. من أيام الرياضة التي ترغمك على أن تكون رياضيًا رغم أنفك سيل من البشر يسد عليك الأفق، ويغلق الطرق، ويرفع أعلام النصر، ويصفق، ويصيح، ويهزج طربا، ونشاطا وحيوية واشراقا فى وجه كل من يلقاك حتى عند إشارة المرور تحول المصطفون إلى أصدقاء يتحدثون عن الفوز شيء لم نشهده من قبل.. الحديث كله عن النصر عن الفوز الذي حول كل شيء إلى فرح ومرح.

ولاشك أن النصر يبعث النفوس ويحييها ويدفعها لتعمل شيئا ولتكون شيئا، والأمم مجبولة على حب الفوز في كل شيء تفرح إذا انتصرت وفازت وتعبر عن الفوز بضروب مختلفة من التعبير، والعرب من أكثر الأمم إحساسًا بنشوة النصر ومن أكثرهم احتفاء به وتعبيرا عنه بما يناسب حال النصر، لكنها لا تبالغ في ذلك ولا تظهر مغالاة وتهويلا له ولا تعطيه أكبر من حجمه الذي يستحق وشاعرهم يقول:

ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازعا من صرفه المتقلب

لأن النصر لا يدوم ولا يضطرد، ومن تأخذه نشوة النصر ويطير به فرحا قد لا يثبت إذا لم يكن النصر بجانبه.

أن ننتصر فهذا رائع أن نفوز فهذا شيء عظيم، أن نفرح فهذا من حقنا أيضا، لكن ذلك كله يجب أن يكون في حيزه المعقول وحجمه الطبيعي، دون

---

(١) اليمامة ١٤٠٤/٨/٨ هـ - ١٩٨٤/١/١ م - عدد ٨٠٢.

(٢) كان هذا المقال بمناسبة حصول المنتخب الرياضي على كأس آسيا إذ بلغ شعور مشجعي الرياضة حدًا أزعج سكان الرياض وحدث منهم بعض التجاوز للآداب العامة في ذلك اليوم.

www.mtenback.com

تجاوزات . . دون إساءة للآخرين . . دون انفعال يخل بالوقار ويقلل من احترام النفس واحترام الناس . .

نرجو الله أن يحقق لهذه الأمة النصر دائما و أن يهبها النصر على نفسها وعلى عدوها فذلك هو النصر وذلك هو الأمل وشكراً للرياضيين الذين ذكرونا بالنصر .

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

حـال العـرب[1]

ما أحسن حال العرب اليوم لمن يريد أن يسلخ فيهم ويشمت بأخطائهم وما أحسن حالهم لمن يريد أن يتكلم همسا أبعد صدى من الجهر حتى يكشف أخطاءهم وحماقاتهم وما جنوه على أنفسهم منذ أن أعلنوا ثورتهم العربية الكبرى قبل سبعين عاماً إلى اليوم، منذ ذلك اليوم وبعضهم يتخبط ذات اليمين وذات الشمال، يهب وراء كل ناعق ويعبث عبث الأطفال بما لا يجوز به العبث، ويرتكب حماقات صبيانية يندى لها الجبين ويتبلد منها الإحساس، وتنهش حماقاته الضمير الحي حتى تدميه وتميته بمعاناة الألم والحسرة. وكل عام وهذه الأمة المنكودة تنحدر إلى الهاوية وتستزيد من الهزائم وتغص بكآبة الخذلان.

أضاعت وحدتها في طرب وطيش مجنون أول الأمر، ثم أضاعت أرضها وفرطت في ميراثها بعد ذلك ثم غُلِبتْ على أمرها، فردت بأسها إلى نفسها شديداً عارماً يقتلع الجذور قبل الأغصان، ونالت من نفسها ما لم ينل منها أعداؤها وما لم يطمعوا بمثله من قبل. ولا تزال منحدرة إلى الهاوية مسرعة في خطاها إلى الحضيض.

والداء الذي لا دواء له أنك تجد أكثرهم ممن يستطيع أن يفعل شيئاً يعرف طريق الخطأ فيسلكه ويعرف سبيل النجاة فينحرف عنه، وإذا سألته لماذا؟ أخبرك أنه يعرف الصواب، ولا يستطيع الأخذ به ويعرف الخطأ ويسير عليه، بل وجدته لا يستطيع إلا أن يسير على هذا الخط المائل، ترى متى يستطيع هؤلاء أن يقولوا: لا بملء أفواههم إذا سيموا خطة ضيم. ترى متى يسلكون الطريق

---

(١) اليمامة ١٤٠٣/١١/١٦ هـ - ١٩٨٣/٨/٢٤ م - عدد ٧٦٥.

www.mtenback.com

التي يعرفون أنها طريق الصواب والنصر، ومتى يكفون عن الطعنات القاتلة لأنفسهم التي توجه إليهم بأيديهم وإرادتهم.

إن الإنسان ليعذر من لُبِّس عليه الأمر فاجتهد وأخطأ ولكن أين العذر لمن يعرف الصواب فيعرض عنه ويعرف الخطأ فيسير عليه، والله المستعان.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الحديث والقديم[1]

خلخلة القديم الذى عرفه الناس وألفوه وعاشوا عليه أجيالاً متتابعة أمر مشاهد محسوس، وزعزعة هذا القديم والتقليل من شأنه وزحزحته عن مكانه في الوعي العام إن كان قد احتل مكانا ما أمر تدركه بالحواس الخمس في هذا الوقت. وكأن تحطيم الماضي بخيره وشره أصبح هدفا من أهداف الحاضر. وفي مقابل ذلك إقبالا لا مثيل له على كل جديد حادث بغض النظر عن قيمته وصلاحه للحياة، ولا يحاول المجددون الالتقاء مع القديم ولا الارتكاز عليه وكأن القديم والجديد أصبحا ضدين لا يجتمعان في حياة الناس ولا يجب أن يجتمعا.

وعند طلاب الجديد ودعاته أنه كلما كان الخلاف للقديم والمألوف والموروث حادًا وبعيدًا ومتطرفًا كلما اطمأنت قلوبهم وارتاحت ضمائرهم لصلاح ذلك.

وطلاب الحداثة يرون أن الابقاء على الماضي أو بعض منه شيء لا يليق بهم ولا يتلاءم مع تطلعاتهم، لهذا يحرصون على التخلص منه وطمسه بسرعة تشبه سرعة عصرهم وسرعة اندفاعهم إلى المغالبة والمغالطة إن في الأدب وإن في الفكر وإن في السلوك وغير ذلك، ومفهوم الحديث عند عشاقه يجبرك على أن تفهم أنه الشيء الذي لا يلتقى مع القديم في خط ولا يوافقه في حال ولا يأخذ منه ولا يعطيه، وهذا منحى خطير على موروث الثقافة وتعصب أعمى وميل مع الهوى وفصم لعلاقات الحاضر مع المماض وهو بطبيعة الحال تعبير صريح عن منتهى درجات التطرف لا يخص مجتمعًا دون آخر ولا أمة دون أخرى، وإن كان هناك اختلاف في اتساع درجة هذا الميل على قدر ما يتاح لكل مجتمع من حرية التعبير الصريح أو المبطن عن مواقفه وعن آرائه في الحياة والناس.

---

(١) اليمامة ١٤٠٤/١٢/١٧ هـ - ١٩٨٤/٩/١٢ م - عدد ٨١٩.

www.mtenback.com

ففي الغرب مثلا الذي ينال الفرد فيه قدرًا لا بأس به من الحرية الشخصية في تصرفاته الخاصة إذا كانت لا تعارض حريات الآخرين عبرت طائفة «البانكز» عن ميلها وواقعها وواقع الحياة التي يعيشها الجيل الحاضر في الغرب.. وبشكل صارخ ومثير للفضول ولافت للإنتباه، فلونوا وجوههم بأصباغ متناقضة الألوان وحلقوا شعورهم على هيئات الطيور الوديعة الهادئة التي لا تجرح ولا تؤذى ورددوا الأغاني والموسيقى التي تعبر عن هذا الواقع وجعلوا الصمت شعارًا لهم إذا جمعتهم مسالك الحياة مع الناس من غيرهم.. بينما تنطق أشكالهم بنوع من التعبير الساخط على الحياة وعلى المجتمع الذي يرفضونه ويرفضون ماضيه وعاداته وتقاليده ويرفضون التعاون معه.

أما في العالم الثانى والثالث فللباحثين عن الجديد دأب آخر ومذهب أقوى من استعراضات «البانكز» في ميادين العواصم الأوروبية ولله في خلقه شئون.

www.mtenback.com

لو باع العرب الفلافل[1]

يوم الثلاثاء الرابع عشر من شوال الماضي كنت في نيويورك وكنت على موعد مع الشرق الأوسط بعد أسابيع من الانقطاع عن متابعتها وما كدت أعود إليها وأقلب بعض صفحاتها حتى شد انتباهي الخبر عن الدكتور مهدى وعزمه على بيع الفلافل العربية على الأفنيو الأول أمام مبنى الأمم المتحدة، فلم أفاجأ بالخبر بل سعدت به واحتفظت بذلك العدد للكتابة عنه حين العودة إلى الرياض.

وبعد عودتي بدأ تفاعلي مع الأحداث التي حركها الإعلام الغربي يقل وهبطت الرغبة في الكتابة إلى درجة الصفر وكتبت للجزيرة شيئًا آخر، والسبب قناعتي أن ما أكتب أو يكتب غيري لن يلقى من قراء الإعلام العربي أكثر من مط الشفاه وخلجات الأعين واعتبار الأمر تكتيكاً إعلاميًّا جديدًا لا يلبث أن ينكشف للقراء الذين أصبحوا يتنبؤون بما سوف يقول لهم الإعلام في العام القادم كله، وبعضهم يراهن على أنه يستطيع أن يضع توقعات تصح كما تصح توقعات الطقس لأن الإعلام في رأيه اليوم هو الإعلام لم يتغير منذ ثلاثين عامًا.

واليوم الجمعة الرابع والعشرون من الشهر نفسه أجد الخبر في الشرق الأوسط بقلم جهاد والنابلسي يعلقان على بيع الفلافل فقررت العودة إلى قرار الدكتور مهدي لتقويمه وتحديد بواعثه ونظرت إليه إن كان قرارًا صالحًا للعمل أو يحتاج إلى بعض التعديل وتبين لي أن القرار في منتهى الحكمة وهو صالح مائة في المائة ولا بأس لو وجه الدكتور مهدي الدعوة إلى كل المثقفين العرب وطلب منهم الانضمام إليه وسعى إلى تطبيق قراره في كل عاصمة غربية تغص بآلاف السياح الأثرياء من العرب الذين يرتادون المنتجعات الغربية، وسيجد الدكتور

---

(١) اليمامة ١٤٠٣/١١/٢٨ هـ - ١٩٨٥/٨/١٤ م - عدد ٨٦٦.

www.mtenback.com

عددًا كبيرًا من أمثاله المثقفين العاطلين الذي سيدفعون عربة الفلافل في كل شارع من شوارع مدن الغرب.

ولدي القناعة التامة أنه لم يقرر بيع الفلافل - بعد ثلاثين عاماً من الدفاع عن قضايا العرب في أمريكا - اعتباطاً ولا مجازفة وإنما وصل إلى قراره بعد خبرة طويلة في دهاليز الإعلام العربي الذي أنام الأمة على أحلام النصر ثم أيقظها على مرارة الهزيمة ثم التمزق والقتل والارهاب. وترك الإعلام إلى عمل شريف منتج خير ألف مرة من الاستمرار في خطأ الممارسة الإعلامية المقلوبة. وقرار أحد خبراء الإعلام العربي وأحد أساتذة الجامعات الأمريكية الذين تطوعوا لصالح القضية العربية العودة إلى بيع الفلافل قرار واع ولكنه جاء متأخرا حقًا.

فلو بدأ مثقفو العرب الذين أصبح لا مكان لهم في جعجعة الإعلام الدعائي في بيع الفلافل منذ وقت طويل لكان حالهم اليوم خيراً مما هو قائم.

فبيع الفلافل عمل شريف ليس فيه نفاق ولا محاباة وليس فيه ذوبان لشخصية الإنسان وفقدان لمقوماتها وهو بعد ذلك وقبله عمل ينمي الإعتماد على النفس.

وأهم من ذلك كله يشعر المثقفون بائعو الفلافل بأن أرزاقهم ليست بأيدي أحد وأن عقولهم قادرة على صنع الفلافل وليست ملغاة عن العمل وأن وجودهم وبقاءهم ليس أسير الرضا والغضب، بقى أن نعرف أن الدكتور محمد مهدى هو رئيس جمعية الشعب العربي والمجلس الوطني للشئون الإسلامية وهي جمعية حاولت تعريف الأمريكان قضية العرب وانتهت بقرار رئيسها بيع الفلافل العربية اللذيذة.

فهل يجد المثقفون العرب من يمنحهم رخصة لبيع الفلافل؟

www.mtenback.com

الكلمة البيضاء[1]

قد يكون الإنسان من القلة التي يسعدها الحظ فتسأل عن رأيها في موقف من المواقف أو تصرف من التصرفات التي يمارسها الناس فتعطي رأيها وتجتهد في أن تقول الصواب أو قريبا منه وقد يكون الإنسان في موقع اجتماعي يسمح له بقول ما يعتقد وتقديمه، وقد يكون ممن رغب النظر فيما يفعل الناس، وعرف احتمال الصواب والخطأ وصار له رأي يواجه به من يتعامل معهم دون أن يطلب أحد منه ذلك فيبادر إلى قبول عمل من الأعمال أو يستحسن تصرفا من التصرفات وإن لم يعرف من قام به بينما يقف من عمل آخر موقف النقد ويظهر ما ينطوى عليه من أخطاء وإن صدر عن أقرب الناس إليه وأحبهم إلى نفسه.

هذا الإنسان يحتاج إلى أن يبذل وقتا ثمينا وجهدا شاقا يظهر فيه مواقع الخطأ في بعض ممارسات الناس حتى تتضح المآخذ عليها ويقدم أمام رأيه دليلاً يجعله يقف موقف المعارض فيكشف ما خفي من أشياء يعرفها بطبيعة علمه وتجربته ونظرته المستقلة التي تبعد عن الدوافع الشخصية التي قد يقع تحت تأثيرها القائمون بالعمل المعترض عليه وقد يحرق أعصابه ويضيع وقته من أجل الآخرين لكنه يجد لذة تعوض عناءه عندما يدل الناس إلى ما يعتقد أنهم بحاجة إلى علمه ومعرفته ويصحح لهم ما يظن أنهم فعلوه مخطئين في تقدير الصواب، وإن لم يطعه الناس كفاه محض النصح وبيان الرأي فيجد السعادة بحمل عبء النصيحة على كاهله.

هذا الإنسان تكون مشكلته عظيمة عندما تقوم فئة من الناس أو شريحة من المجتمع بممارسة خاطئة يعرف أن الخطأ فيها أوضح من أن يلتبس على أحد من

---

(١) اليمامة ١٤٠٧/٢/١٢ هـ - ١٩٨٦/١٠/١٥ م - عدد ٩٢٥.

www.mtenback.com

القائمين به ويجد أنهم لا يحتاجون إلى تصويبه لوضوح الخطأ.

ولكنهم ينساقون تحت وهم الأعذار والتماس المبررات الواهية للخطأ المكشوف لأنهم يجدون ميلاً قويًا إلى القيام به تحت أسباب لا تنهض لهم بحجة، عندئذ ينقطع صوت النصح وتحشرج الكلمة البيضاء الناصعة ويتلعثم اللسان الصادق، ويظلم أشراق الوعي وتتبخر حرارة الفكر وتطير في تلاع المصالح والأغراض، فلا يستطيع المواجهة بالرأي ولا العمل ويبقى الميدان للقادرين على الاستمرار في الأخطاء.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

منصور الحازمي و « زمرته »[1]

في تكريمه تسابقت الكلمات، جاء بعض المتكلمين يقطع مئات الأميال ليقول كلمة، وجاء بعضهم من أطراف الحي ليقول أخرى، مُلئ البيت الكبير معنى ومبنى بأجيال من أهل الأدب وسعهم لطف المضيف الشيخ عبد المقصود خوجة بصدر رحب غمر الجميع ببشاشة الاستقبال وكأن كلا منهم محتفى به لشخصه، جئت مع الركب وبدأ الحديث بكلمة لعمنا حسين زيدان لا فضَّ فوه، وتوالت الكلمات من زملاء الرجل ومريدي أدبه فانصبت على ذكريات الجامعة وليالي القاهرة وأيام «دحلة» حرب، ففرحت أن طلاب الرجل وهم آلاف قد غابوا وأنا الحاضر منهم وعددت ذلك سبقا لنفسي في هذه الليلة عندما أتحدث عن جانب لم يطرقوه فسجلت اسمي في قائمة المتحدثين وأخذت أكتب هذه الكلمة :

ولو أجزت لنفسي الحديث عن منصور كاتبًا مازدت على ما تعلمون ولو تحدثت عنه شاعرًا لقصرت عما تعرفون ولو وصفته أديبًا لكنت كمستبضع تمرا إلى أرض خبيرًا فأنتم أهل الأدب، وأهل مكة أعلم بشعابها ولو وصفته مربيا لما زاد وصفي له عما يعرفه للرجل طلابه الذين تخرجوا على علمه وعرفوا فضله.

لهذا فإن حديثي سيكون عن نفسي في ظل العلاقة الشخصية لا معناها وفي فحوى الزمالة لا مبناها، عرفت نفسي طالبا من طلابه في القرن الرابع عشر للهجرة وعرفته أستاذًا في جامعة الرياض في ذلك القرن فتعاملت معه على مبدأ الطلب وأدب التلقي وعرفت أن منصورًا لم يكن معلما بل باني أسس لحركة ثقافية شمولية لا ينظر إلى موقعه فيها بمقدار ما ينظر إلى سواد الذين يستفيدون

(١) اليمامة ١٤١٠/٥/٨ هـ - ١٩٨٩/١٢/٦ م - عدد ١٠٨٣.

www.mtenback.com

منها، يهتم بالمنطلقات العريضة لهذه الشمولية الواعية ولا يثقل كاهل أحد بدقة التفاصيل واختلاف صور الاجتهاد، يؤمن بتعدد الوسائل إلى تحقيق الغاية الكبرى لهذه الأمة بثقافتها الواسعة.

وأظن أن هذا هو السبب في أنه لم يشتبك يومًا ما مع أحد في معركة هجائية أدبية أو شعرية على الرغم مما قد يوحي به بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، مع ما وهب من سرعة البديهة ولذعة السخرية إذا أحوجه أحد لذلك عرف كيف يضحك ويضحك الآخرين.

عرفت صدق أحاسيسه معلما ورغبته في أن يكون طلابه مناقشين لا مستمعين، يشعرهم أنهم يعرفون كثيرًا ويحسنون ما عرفوا يحمل إليهم مكتبته الخاصة أحياناً ويبقي معهم الساعات الطوال في بحث مسألة لا يحتاج تحقيقها إلى أكثر من الإحالة إلى مصدر. . يحبب ما يقول إلى من يسمع لا يغضب ولا يتجهم كان وسيع البال وكنا نضيق بذلك أحيانا فنبتعد عنه لكننا لا نجد بدًا من السعادة بالعودة إليه والتبجيل له وكلما هونا عنه جرنا الشوق إليه. ثم بعدتُ عنه بقية ذلك القرن وعدت إلى صحبته في القرن الخامس عشر للهجرة وفي جامعة الملك سعود في الدرعية، لكني لست طالبا هذه المرة بل زميلا، وضعوا زميلا هذه بين قوسين، عرفته زميلا فانكشف لي الجانب الآخر الذي لم أعرفه طالبا فعلاقة منصور مع زملائه حديقة غناء لا تنبت أرضها شوك القتاد وليس فيها هجير الصحراء ولا في رقتها ملمس الأفعى، ماؤها طيب وظلها يتفيأه أصدقاء الرجل ومحبوه وقد يكون معهم شيطان تغريه أو جاحد تغويه لكن منصورا لا يقوم العلاقات الأخوية بمضامين التعامل اليومي، فيعان على الشيطان والإنسان ويبقى منصور منصورا.

أيها المكرم المحتفي به الليلة والمحتفي به غدا، أشعر أنك أتعبتني معك في السير وقد قررت ألا أصحبك بعد هذا القرن ولن أبتلع قرنا ثالثاً، أما أنت فستعيش قروناً كثيرة لأنك أحببت الحياة وأحببت الناس وسلكت طريق الخلود بما تركت من آثار للدارسين.

www.mtenback.com

فشكراً على حسن الصحبة وشكراً للأيام على حسن المصادفة وشكراً لمن كرم بك الأدب وكرمك به.

ولم أصل إلى نهايتها حتى أعلن مدير الحفل أن الوقت المخصص للكلام قد انتهى فرفعت يدي وصوتي محتجا وذهبت إليه راجيًا أن يكون حديثي في الوقت الضائع - وقد كان - وأخبرته أن لدى الجميع ما هو أغلى مما أقول لكنني أتيت من الرياض لأقول كلمة فلم تفلح المحاولة، ولم أجد بدًا من قراءة ما كتبت في طائرة العودة بعد منتصف الليل لنفسي فقط.

شعرت بمرارة التفريط وخطأ انتحال التواضع وصدقت شوقي بأن الدنيا تؤخذ غلابا، وذكرت أنها لم تكن المرة الأولى التي أفشل فيها مع المحتفى به «وزمرته» كما سماهم أخونا فهد العرابي الحارثي تلك الليلة، كان الفشل الأول حين انتقلت الجامعة إلى مقرها الجديد في الدرعية وكنت أشارك في يوميات إحدى الصحف فأردت أن أذكر عنهم ما أعرف وجعلت انتقال الجامعة مناسبة للحديث «أتعلث» به وجاء عنوان مقالي الجامعة الكبيرة والرجال الكبار، تحمست لكتابة ذاك المقال مثلما تحفزت للحديث تلك الليلة وذكرت منصورًا و«زمرته» بما أعرف عنهم، فخرج المقال لم يخرم منه حرف واحد غير اسم منصور وزمرته فحمدت الله على كل حال والسلام.

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الفصل الثالث

أفكار مبتورة

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

للزمن الخرف من يقرع العصا؟[1]

للعرب أكثر من أسلوب في مخاطبة الناس ولهم آداب في الحديث وكلمات تناسب مكان المخاطب ومنزلته الاجتماعية والدينية، ولهم في ذلك عبارات جميلة فيها تقدير واحترام للمخاطب وتعبير عن مكانته في المجتمع أو سنه، ومن تلك العبارات ما يفيد الدعاء - للإنسان إذا كان صاحب مكانة متميزة، علمية أو اجتماعية باستمرار الحياة وطول العمر ودوام البقاء والبركة كقولهم: أدام الله حياته، وطال بقاؤه، مد الله في عمره، ويعني بمثل هذه الكلمات عادة العلماء والأمراء والولاة ومن في طبقتهم، وبعض هذه العبارات تسود في مجتمع معين وتنتشر في أجيال وبيئات معينة، ويكون لاستعمالها بريق وبهاء في أول الأمر حتى يتوسع الناس في استعمالها، فتفقد بهاءها ورونقها وتصبح بلا معنى فتموت عندئذ وتسحب من التداول، ويبحث عن كلمة جديدة لها جاذبيتها ولها بريقها، ومن هذا النوع العبارة التي نستعملها اليوم «طال عمرك» التي شاعت وانتشرت وتردد استعمالها على كل لسان نقولها بعفوية وتقال لنا عشرات المرات في اليوم والواحد.

وما كانت هذه الكلمة معروفة في كثير من أطراف الجزيرة ولا كانت شائعة هذا الشيوع قبل سنوات، والظاهر أن استعمالها بدأ في أول الأمر في وسط الجزيرة وكان يخاطب بها القلة من الناس والعلية منهم، لأن الحديث مع هؤلاء يوجب شيئًا من الاحترام للمخاطب والتقدير له، وبعض الناس لا يستسيغون بعض العبارات فجاءوا بهذه الجملة المتفائلة لما فيها من اللياقة والأدب الذي لا ينال المتحدث منه صغار مع أن الحديث مع المخاطب ذي المكانة المتميزة يفرض ما يليق من العبارات المهذبة لتكون منطلقا للحديث معه.

---

(١) الجزيرة ١٤٠٤/١/١٢ هـ - ١٩٨٣/١٠/١٨ م - عدد.

www.mtenback.com

والدعاء بطول العمر تعبير لائق يوحي بأهمية حياة المخاطب وأنها نافعة مفيدة، وقد توسع الناس باستعمالها اليوم حتى صارت تطلق على كل من جرك الحديث إليه، وأصبحنا نسمع هذه الجملة تتردد حتى في الخصومة والنزاع دون أن يقصد معناها، فابتذلت وفقدت بريقها الأول وأصبحت من القول الذي لا ينعقد عليه قصد.

وقد جرني الحديث إلى ذكر خطرات الشعراء وآرائهم في هذا المعنى حيث عبروا في الكثير من الشعر الجيد عن تجاربهم ووصفوا المعاناة التي عاشوها عندما امتدت بهم الحياة، وشكوا السلامة واستمرار الصحة ودوام البقاء الذي حرصوا عليه فى شبابهم وأجمعوا على أن كل ذلك سبيل إلى الموت وطريق يؤدي إلى النهاية بل إن الجملة التي نرددها اليوم - طال عمرك - قد كان لها من الشيوع والانتشار بين الناس فى الزمن الماضي مالم يكن لها فى الحاضر وقد لا كتها ألسن المتكلمين حتى ملّ الناس ترديدها واعتبرها الشعراء دعاء على الإنسان وليست دعاء له، فقالوا في هذا المعنى:

لا تحسدنَّ على البقاء معمرا فالموت أسهل ما يؤول إليه
وإذا دعوت بطول عمر لا مرئ فاعلم بأنك قد دعوت عليه

وإذا كان حب الحياة والتعلق بها والخوف من الموت والفرار منه طبيعة الإنسان التي جبل عليها، فإن الحياة بذاتها كفيلة بسوق المرء إلى النهاية التي لابد منها وهى الراحلة التي ستنقله إلى ما يخشاه، وقد قصد الأخطل إلى هذا المعنى عندما قال:

الناس همهم الحياة ولا أرى طول الحياة يزيد غير خيال

هذا هو حال الناس وما جبلوا عليه من حب للحياة ورغبة فيها في رأي الأخطل.

أما الشاعر حميد بن ثور الهلالي فقد عبر عن تجربته الذاتية وما آلت إليه حاله إذ مد الله في أجله وطال عمره فرأى الموت يدب في أطرافه ويموت بعضه قبل بعض فبكى نفسه وعزا كل ما أصابه إلى السلامة والصحة التي لازمته طول

www.mtenback.com

حياته وأسلمته في النهاية إلى حتمية المصير الذي فر منه فقال :

أرى بصري قد رابني بعد حدة وحسبك داء أن تصح وتسلما
ولا يلبث العصران يومًا وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

أما رأي لبيد بن ربيعة العامري فلا يبعد عن رأي حميد حيث قال :

ودعوت ربي بالسلامة جاهدًا ليصحني فإذا السلامة داء

وقد عمر لبيد حتى ملّ الحياة وشغله الناس بالسؤال عن عمره وكثرة الحديث عن حياته وطولها فصرخ في وجوه القوم قائلا :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

أدرك الشعراء أن طلب السلامة والصحة واستمرار ذلك خدعة وتسويف، وأن من دعا لنفسه بهذه الخصال فقد دعا عليها.

والواقع الذى عاشوه ساقهم إلى الداء العياء الذي لا يرجى منه شفاء بل إن الثمانين في رأي زهير كافية لجلب السأم والملل من الحياة، أما الطرماح فقد وجد مبرراً معقولاً لحب الحياة وطولها عند من أعطتهم المال والجاه وجادت لهم بما حرمته غيرهم، لكن تعجب من حال البؤساء والمحرومين الذين يحرصون عليها بلا مبرر معقول :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجوع

ومع ذلك يبقى طول العمر مطلبا عزيزا يتوق إليه الطبع ويتمناه الإنسان ويحرص عليه ويستزيد منه، ولا يقبل عنه بديلاً ولا يساويه عنده شيء، وكلما تقدم به السن زاده حبا للحياة وحرصا عليها سنة الله التي خلت في عباده.

لكن المؤلم أن الزمن في نظر الإنسان يظل بساعاته وأيامه ودورة الحياة المنتقلة فيه مستمرا في سن الشباب متجددًا لا يبلى ولا يفنى ولا يصيبه ما يصيب الإنسان من هرم وضعف.. وكل ليلة عجوز تنبلج عن مولد يوم أغر جديد مملوء الاهاب وطري الشباب :

www.mtenback.com

إذا هـرمت ليلة يـومهـا أتى بعد ذلك يـوم فتي

فهو الدائم المبيد أبدا - في رأي الشعراء - المستمر بالحياة والنمو.

وقد حافظ على هذه الصفة واعترف له الناس بهذه الميزة حتى جاء أبو الطيب فقلب المفهوم السائد وعكس الأمر المتفق عليه، فكب الزمن على وجهه وقلبه على قفاه، وصوره شيخًا دميمًا عاجزًا، قد تهدلت أجفانه وغارت عيناه وعجز عن النفع وسكن عن الحركة، فهجاه وانتقم منه وقال فيه :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسـرهم وأتيناه عـلى الهـرم

ونسب الشاعر كل اخفاق أصابه فى حياته إلى عجز الزمن المنكود وضعفه وشيخوخته، وأسقط فكرة الزمن المتجدد من الأذهان ووصمه بالمرور السريع الخاطف :

دهر يمر وعمر ليت مدتـه في غير أمته من سالف الأمم

وجعل له ما لمخلوقات الله التى لا تدوم، وسلب منه الميزة التي أقر له بها من سبقه من الشعراء، وزعم أن هذه الشيخوخة هي سبب الحرمان الذي لازمه. فأي الرأيين تصدق؟

www.mtenback.com

حتى يسير موكب الثقافة[1]

الخلاف في الرأي حقيقة وواقع في الحياة لا يمكن تجاوزه، وأكثر ما يكون الخلاف والجدل في الفكر وقضايا الحياة ومشترك الآمال للأمة والمجتمع الإنساني كله - وقد قسمت للناس حظوظهم من العلم مثلما قسمت أرزاقهم، ومن العدل ألا يكون الناس متساوين في الحظوظ إذ لابد من التفاوت في الادراك والمعرفة تبعًا للتفاوت في المستويات الثقافية وهذا شيء تقتضيه طبيعة الحياة.

ومبدأ الخلاف مبدأ قائم منذ وجد الإنسان وسيستمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. وهذه هي القاعدة الثابتة وهي القاسم المشترك في مسير الحياة الطويل، ولا أمل لتبديل الطريق التي ألفها الناس وعرفتها مجتمعات وأمم شتى، وقد انقطع الأمل في أن يعيش الانسان حياة لا يعرف فيها لرأيه مخالفًا.

وأبدية الجدل واستمرار الخلاف مع الحياة وفي كل المجتمعات الإنسانية ميزت أشكال التعامل الفكري ونماذجه وحددت بواعث الطرح وسلوكية الجدل، وقد عرف الفكر في تاريخه الطويل للخلاف مذاهب كثيرة أهمها وأجدرها بالمتابعة الجدل المهذب الراقي، والطرح الحضاري لمشكلات الثقافة واختلاف وجهات النظر حيالها والوعي والادراك التام لما يواجه الحياة والإنسان الذي يعيشها من عثرات.. والجدل بهذا المعنى جدل يمثل قدرة التعامل مع موجبات الحياة ومع سلبياتها بفكر وعقل يترفع بعيدًا عن بواعث العاطفة وأجاج الحمية الذاتية، ويفرق بين صراع الحياة من أجل البقاء وأدب الفكر من أجل الحياة.

أما ما تجاوز هذا الفهم أو انحط دونه فلا يصدق عليه غير الجدل عن

---

(١) الجزيرة ١٤٠٦/٢/٣ هـ - ١٩٨٥/١٠/١٧ م - عدد ٤٧٧٦.

www.mtenback.com

خصائص الذات وبعث هنات النفوس.. ولا تكون نتائجه إلا تعرية لبدائية سلوك الإنسان وعودة بفكره إلى نماذج الصراع في ميدان البقاء الذي لا يتسع لأكثر من منتصر.

وقد ميز علماؤنا الأولون بين هذه الأنواع من الجدل العقلي وجعلوا للاختلاف في الرأي أدباً ساميًا يرتفعون إليه في خلافاتهم، فأصبح نصيبهم من الفكر وحظهم من منهجية السلوك العقلي وافرا.. عرفوا أسس الجدل في الرأي فلم يشتطوا عندما يكثر المنازعون لهم، أو تقوى الحجة بجانب غيرهم، ووطنوا النفوس على قبول الرأي الآخر، والتعامل معه برفق يعتمد البحث عن الصواب ويهدف إلى الحق وينصف الآخرين، فلا يقلل من شأنهم ولا يجور عليهم ولا يضر صاحب الرأي أن يصدع بآرائه مادام محور الجدل هو الفكر المستقل عن ضعف الشخصية وأسبابها.. ذلك هو أكرم أنواع الجدل وأجدرها.. بالمتابعة والاحترام وأقربها إلى الفائدة.

تقول العرب «اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية» هذا المثل يردده أهل الجدل اليوم معنى جامدًا فارغًا من محتواه الذي كان يملأه في الماضي حتى أنك لتظن أن القول خطأ تسرب إلى لغة العرب من غيرها وأنه لا أساس له من الصحة في حياتهم ولن يمعن الشك في نفسك حول صدق هذا التعبير فتأخذها إلى ملفات التاريخ العربي الإسلامي باحثًا عن شاهد عليه من تاريخهم الفكري حتى تجد إشراق هذا المعنى وتجد أن للعرب تاريخاً فكريًا لا يفسد الاختلاف فيه قضية.. كان العالم فيهم يعرف ما يفعل قبل أن يقول وكان يقول بعد أن يعرف الصواب ويتميز له الحق فيأخذ العدل ويعطي من نفسه وفكره السوية لمن يوافق رأيه ومن يخالفه لا يضيره كثرة المعارضين ولا يغريه بالخطأ تصفيق المشجعين.. كانت آراؤه تصدر عن استقراء وعلم فيما يعلم وكان لا يستنكف أن يأخذ الفائدة غير عابئ عمن صدرت ومن أين جاءت فالحكمة ضالته.. يتخذ الموقف ويصل إليه بعد الدرس والتمحيص وتقليب وجوه الاحتمالات وإمكانية حدوث الخطأ.

يضع للصواب فى رأيه كل الامكا المعقول فإذا استقر على الرأي الذي يعتقد

www.mtenback.com

صوابه زحزح عنه غليان التعصب وميل العاطفة وأعطى لنفسه حق الدفاع عما يراه صوابًا بأدب وعلم لا يلغي آراء الآخرين ولا يرفع فى وجوههم عصا الارهاب الفكري.. ولا يتخذ من المخالفين له فى الرأي وسيلة للتهجم ولا يضع نفسه موضع المعلم ولا يحشر أنفه لتشمم دخائل النفوس وما تجن الجوارح.. ولا يفعل ذلك لسبب بسيط يعرفه كل من تعامل مع الفكر وخبر النفس وعرف العجز البشري عن الكمال، وأحس بضيق مسالك الخلاف في الرأي وتنقل فى مسارب الابداع الواعي وسلك طريق المعرفة التي جعل الله الاحاطة بها أمرا فوق طاقة الذات البشرية الواحدة أما من لم يعرف من ذلك شيئًا فهو معذور.

كان مالك الإمام يضع أطرا فكرية ويجتهد فى صياغتها لتوافق أسباب الحياة وتقدم للناس شيئًا يساعد على نمو الفكر ويلبى حاجة التطور ويواكب الجديد فى كل صوره. وكان يحاول التجويد في آرائه ما وسعه ذلك، ويأخذ نفسه كل مأخذ حتى كاد أن يبلغ الغاية، فرضي آراءه أكثر أهل عصره حتى إنهم قالوا: «لا يفتى ومالك فى المدينة»، وعندما أعجب بهذه الآراء أحد علماء الأمة الذى قضى شطرًا من حياته فى التحصيل وطلب الفقه ثم وصل إلى الخلافة فأراد حمل الناس على الرأى الواحد - رأي مالك - عرف مالك قيمة آراء الآخرين وأدرك ضرورة بقائها واستمرارها حتى تثرى الحياة الفكرية، وتتعدد مصادر العطاء الذهني ليكون باب الاختيار مفتوحا واسعًا أمام الناس ولتعطي الملكات ثمارها عند كل ذي رأى ويصبح للحياة طعم متميز يلطف جفافها ويجعلها جديرة بأن تعاش.

وكان الخلاف بين فحلي[1] مضر أشهر خلاف عرفه تاريخ الأدب العربي ومثل أطول معركة أدبية بين شاعرين وبلغ في ظاهره أقصى درجات التطرف، ولكنه في واقع الحال حمل فى طواياه طعم الخلاف العقلي ولذة الجدل المنطقى ونحا إلى توظيف المواهب حتى تخصب خيال الأمة وتنعش شعور المرح واللهو البريء فى وجدانها عندما ترى وشاح الماضي قد نمق فى جيد التاريخ الجاهلي

(١) يعنى جريرًا والفرزدق ونقائضهما.

www.mtenback.com

والحاضر الإسلامي . . وكان دورهما أن جسّما واقعًا فى نقائضهما . . وقد استمر الخصمان يعطيان الحياة ذوب نفسيهما أربعين عامًا ويجسدان في ظاهر صراعهما لواعج النفس وخفقات الاحساس المرهف ويضحكان الجمهور الذي ملأ حياته بفنهما واختلافهما . . لكن هذا الاختلاف بقى خلافًا أدبيًا لم يفسد الحياة بينهما ولم يعكر صفو الصحبة ولم يقطع مجرى الصداقة . . فكانا الرفيقين في السفر والصاحبين في الحج والوافدين على الخلافة وكل منهما بقى شفيعًا لصاحبه في أحلك الأزمات وسندا له لا يخذله ولا يلتمس له عثرة ولا يرضى أن تناله مظنة وأكثر من ذلك لم يستطع جرير أن يعيش حياة تخلو من الند عندما ودع الفرزدق ولم يرض البقاء مع جيل لا يتحدى إبداعه الفني، فأعلن تبرمه من الحياة وتوقع قلة بقائه بعد صاحبه وبكاه بكاء الأصدقاء .

وغير ذلك عشرات الأمثلة من اختلافات الآراء فى تاريخنا الفكري التي لم تؤد إلى نبذ العلاقة وقطع أسباب الوصال . . فأثمرت وجهات النظر فكرًا منهجيًا في أدب الخلاف وطريقة للتعايش مع الآراء الأخرى لأن الاختلاف جاء نتيجة علم وفكر وليس نتيجة هوى تسفوه العواطف والأغراض .

وقد أوجز أحد فلاسفة العرب المسلمين أدب الرأي والاختلاف حوله بقوله : رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى الآخرين خطأ يحتمل الصواب فأنصف نفسه وخصمه وبسط لغيره سبل الجدل الواعي حول قيمة الرأي والرأي الآخر وحرمة كل منهما .

فما أجمل أن يجعل المختلفون اليوم حول قضايا الحياة والفكر للخطأ احتمالا في آرائهم ومناهج تفكيرهم التي يصرون عليها ويجعلونها صوابا لا يحتمل الخطأ ولا تخضع للنقاش . . ويكون للصواب احتمال في آراء معارضيهم المخالفين لهم في الرأي والنهج . . وفي الفكر والأدب ما دام الاختلاف ضمن الأهداف السامية للأمة الواحدة وفي سبيل رفع مستوى وعي هذا المجتمع .

وما أجمل أن يترفع المتجادلون عن مكامن النفوس وهفوات الضعف الإنساني وجرح الذات إن كانوا حقا يدافعون عن الفكر والأدب حتى يسير موكب الحياة الفكرية آمنا ويمر سيل الثقافة هادئا مطمئنا . .

www.mtenback.com

قراءة في الطقس الأمريكي..[1]

دعانى أخى محمد لزيارة أمريكا وألح علىّ بالدعوة ووعدنى ألا يكلفني أكثر من قراءة الصحافة الأمريكية الهادئة التي لا تتحدث في الأعم الأغلب إلا عن مشاكل أمريكا وقضاياها وحياتها، وقد وافق العرض هوى في نفسي رغبة في رؤياه ورؤيا عدد من الأصدقاء الذين أسعد برؤيتهم مع ما في طبيعة الإنسان من ميل إلى حب التغيير في الطقس ورتابة الحياة التي يعيشها ومحاولة تجديد أماكن الزيارة بعد أعوام متتالية من الاستقرار والعمل الذى لم أقطعه في زيارة بعيدة أو رحلة خارج حدود الوطن الكبير أو ما يصاقبه ويقرب منه، وكنت أمني النفس أن تكون رحلتي إلى أمريكا هذه المرة مختلفة كل الاختلاف فهي ليست للدراسة ولا للعمل، وإنما هي كما وعدني محمد رحلة للأطلاع واستقراء للإعلام الهادي الرزين الذى يصنع سياسة الدنيا ويمثل صوت القوة المسموع على الأرض ويتطلع بعزم وثقة إلى مساحة الفضاء الواسع. رأيت في ذلك فرصة أخرج فيها عن رتابة الأخبار الحادة المتوترة والدم المضاع في الشرق الأوسط الذي صبغ حياة الإعلام هنا وأخذ أغلب اهتمامه، لبيت الدعوة أملاً في تحقيق هذه الرغبة وربطت ما تيسر من متاع المسافر وأعددت الرحلة لتكون في نهاية شهر الصوم، ولم أصل إلى بوابة العالم الجديد «نيويورك» حتى وجدت الشرق الأوسط وأخباره التي حاولت الابتعاد عن سماعها في هذه الرحلة أمامي تعصف في هدوء أمريكا وتحيله شكلاً من أشكال التشنج الذي نسمعه في أخبار الشرق الأوسط، لقد تحول هدوء أمريكا وبرودها الذى عاملت به قضايا الشرق الأوسط إلى شعلة ملتهبة تغرق وتحرق، كان خطف الطائرة وركابها الذين سيقوا إلى بيروت هو فتيل القنبلة الذي أثار الإعلام الأمريكى وأخرجه عن دائرة

---

(١) الجزيرة ١٤٠٥/١٠/٢٧ هـ - ١٩٨٥/٦/١٥ م - عدد ٤٦٧٣.

www.mtenback.com

الهدوء والتعقل، فتحرك بكل وسائله وبدأ يتحدث عن الشرق الأوسط وعن أهله وكأنه لم يعرف عنه قبل اليوم شيئًا، ولم يسبب له نكدا وبؤسا - أي الإعلام الأمريكي - إلا فى هذه اللحظة المثيرة، تهيأت فرصة رصد العقلية الأمريكية الفاعلة واستقرائها وتأثير سيكيولوجية القوة عليها وعلى الشعب الذي يعد نفسه الأقوى والأقدر دائمًا، ويظن أن غيره سيعامله على هذا الفهم ويعترف له بحق الأولوية ولو في سبيل الباطل وجاءت الرغبة في البحث عن الجديد في وعي الشعب الأمريكي لمشاكل الناس وراء الحدود وألآمهم فأضربت عن الهدوء الذي هيأت نفسي له ووعدتها إياه واستمعت إلى أزيز الإعلام الأمريكي وحاولت أن أرى رسمه لصورة العرب والمسلمين وقضيتهم في نظر الرجل العادي وفهمه.

كانت أيام المحنة كما يسمونها مناظرات مفتوحة على وسائل الإعلام كلها، الصحافة والإذاعة والتلفزة المتعددة الأهواء والميول وقد تحدث فيها السياسيون وصانعو القرارات وتحدث فيها المنظرون ودارسو العلوم السياسية والأخلاق وظهر فيها علماء النفس والمؤرخون وعلماء الاجتماع وأساتذة الجامعات المتخصصون في مثل هذه الشؤون، وتحدث رجل الشارع الأمريكى العادي أيضًا وأتيحت الفرصة لأعداء العرب والمسلمين للحديث، ولبعض الآراء المعتدلة والمتعاطفة مع قضية الشرق الأوسط وإن كانت الأخيرة ضعيفة غير مقبولة إلا أنها جاءت من باب معرفة الشيء بضده.

تابعت الآراء التي طرحت وقرأت مختلف الاتجاهات في الصحافة وآراء المحللين والمعلقين ولم أجد في كثير مما قيل حقيقة واحدة تقترب من الواقع ولم أسمع رأيًا معتدلاً يعرف أو يحاول أن يتفهم جوانب القضية، لماذا خطفت الطائرة وركابها وما الدافع والمقدمات الطويلة المؤلمة التي مر بها الشرق الأوسط والتي أدت نتائجها في النهاية إلى الخطف الذى أحست به أمريكا وشعبها وأثار زوبعة عاصفة فى جو الاستقرار الذي تعيشه.

إن الخطف فى حد ذاته عمل لا يقره أحد ولا يتعاطف معه إنسان سوى التفكير وهذه النقطة هي ما ركز عليه الإعلام الأمريكي في حملته على هذه

www.mtenback.com

النقطة إذ استغفل الرأي الأمريكي عندما بدأ بخطف الطائرة وركابها واجتث ذلك من أصله وعزله عن سلسلة الخطف والقتل والارهاب الذي تعرض له سكان الشرق الأوسط خلال ثلاثة أعوام متتابعة بعد غزو لبنان واحتلاله وأبرز الإعلام الأمريكي مشكلة خطف الطائرة وكأنها عمل منقطع عن الأحداث المؤلمة التي يعيشها الناس هناك ولم يشر إلى معاناة الشرق التي سبقت خطف الطائرة الامريكية بشيء، وعندما أراد أحد المتحدثين ربط ذلك باحتجاز مئات الرهائن اللبنانيين خطفوا من بيوتهم ومن بين أطفالهم وسيقوا إلى سجون إسرائيل حتى تكون يدها على لبنان دائمة الظل عند ذلك تغير محور الحديث إلى الذات الامريكية وبأن الفصل بين ما تقوم به إسرائيل من إرهاب وبين رد الفعل الذي يقوم به الآخرون وظهر الصوت القوي الذي تؤمن به أمريكا والذي يجب أن يقبل به الناس مواقفها من قضايا العالم.

ولكن الأهم في قضية الخطف والإرهاب التي أظهرها الإعلام الأمريكي هي تلك الصورة المقلوبة التي عرضها عن قضية الشرق الأوسط وعن أهله وعن دور إسرائيل في الإرهاب والحرب التي تعرض لها سكانه خلال سنوات عدة إذ ظهر أن الرجل الأمريكي العادي لا يعرف عن قضية الشرق الأوسط شيئًا إلا من خلال إسرائيل ووجودها. فهي في رأيه رائدة التقدم والاستقرار والوجه الحضاري الذي يجب أن يسود في الشرق الأوسط، أما أصحاب الحق والأرض والمخطوفون المرتهنون في قبضة إسرائيل وأمريكا فهم أعداء للحضارة وللحق ودعاة للحرب والارهاب.

هذا الرأي العام الذي رسمه الإعلام الأمريكي يخدم سياسة الدولة المتعاطفة مع إسرائيل ويعينها على الاستمرار ويعفيها من المعارضة الشعبية التي قد تقلل من مساعدتها غير المحدودة لإسرائيل، وظهر أن الشعب الأمريكي لا يعرف غير ما تنقله له وسائل الإعلام التي يصدقها ويأخذ ما تقول على أنه حق وصدق وذلك لثقته بالإعلام أولا ولعل عدم اهتمامه بمشاكل العالم من حوله وانصرافه إلى الكسب والعمل وتنمية المال وشعوره بقوته وفخره بنفسه وديمقراطيته ساعد الإعلام على تلقينه صورة أمريكا العظيمة العادلة غير المنحازة

www.mtenback.com

وقلل في نظره من الاهتمام بما بعد عنه من مشاكل وجعله لا يلتفت إلى شيء من ذلك إلا عندما تصاب كرامته وتنتهك حرماته كخطف الطائرة أو قتل الجنود عند ذلك يفيق قليلاً فيسمع الإعلام يبرر كل ذلك أمامه بأنه عدوان على العدالة الأمريكية وحرب للديمقراطية التي يتمتع بها وهز لقواعد السلام الذي تؤمن به أمريكا وتريد له أن يسود العالم كما تقول وليس غير ذلك.

وبعد ذلك :

انتهى خطف الطائرة بسلام وتنفس الأمريكيون الصعداء وتحدث بعض أعضاء الحكومة وشخصيات حزب الرئيس عن الحكمة والمهارة تمثلت في معالجة القضية وأثنوا على الإدارة الأمريكية وجاء دور الرئيس، فأعلن أنه سيقوم بالمطاردة والانتقام ويقابل الارهاب بمثله فجاء التصفيق حادا والاعجاب كبيرًا لقد برزت أمريكا دولة كبيرة إلى مسرح الحياة بعلمها وتقنيتها وثروتها العظيمة وصناعتها المتقدمة ولم تبرز بقوتها الحربية ولم يذكر فى تاريخها حروب ناجحة مع دول خارج حدودها على الرغم من دخولها الحرب العالمية الثانية فى وقت متأخر ساعد فى نهاية الأمر على تقرير مسير الحرب لصالح حلفائها، والحرب الوحيدة التي واجهتها خارج حدودها هى حرب فيتنام وقد تميزت بحرب العصابات والأدغال وكانت نتيجتها معروفة حيث لا تزال تحس بمرارتها وتدفع ثمنها.

www.mtenback.com

الرجال الكبار.. والجامعة الكبيرة[1]

الشطر الأول من هذا العنوان الضخم الذي ترونه في مستهل هذه الصفحة ليس لي ولا من عندي لكنني سطوت عليه وانتزعته انتزاعًا من عمنا الكبير الشيخ محمد حسين زيدان وهو من كلامه من خصائص أحاديثه السلهة التي تتسم بالانبساط والانطلاق، هذا الكلام من هجيَّراه يرد على لسانه لأنه كبير يرى الناس بحجم نفسه، والحديث لن يكون عن «عم محمد حسين زيدان» لكنه سيكون عن عدد من الرجال الكبار وعن الأعمال الكبيرة التي تتحقق بتوفيق الله على أرضنا وفي بلادنا لنا ولأبنائنا.

لقيت أحد الكبار حقا في علمهم وفي أدبهم وفي فضلهم وقد عرفته قبل خمسة عشر عامًا في جامعة الملك سعود (الرياض آنذاك) كان أستاذًا في الجامعة ولازال فيها أستاذًا. . جاء مع أول خمسة إلى كلية الآداب في عام ١٣٨٦ هـ وانضموا إليها أساتذة يحملون الدكتوراة كانوا شبابًا من أنداده عادوا بعد سني التأهيل العلمي وهم يتوقدون حبا وإخلاصًا لهذه الأرض.

لهذه الجامعة لأهل الأرض ولأبناء الجامعة، فانضموا إليها فريق عمل متقدم، عرفته معلما وأخذت عنه العلم وعن زملائه الخمسة وعن غيرهم ممن كان في الجامعة يومذاك. وكانت علاقتي به علاقة الطالب بالأستاذ استمع إليه وإلى زملائه بصمت ثم انصرف لتدوين ما علق بالذاكرة من محاضراته أو ما استطعت تعليقه من كلمات وأسطر متقطعة شتت انتظامها سرعة الالقاء وعجزي عن اللحاق بكل جملة يقولها، اكتفيت بهذه الصلة ولم أعرف عنه ولا عن زملائه أكثر من ذلك، ثم شاء الله بعد التخرج لي أن أبقى فى الجامعة وأن أذهب مع من ذهب إلى هناك وأعرف الكثير من الناس من شرق وغرب

(١) الجزيرة ١٤٠٥/٣/٢٣ هـ - ١٩٨٤/١٢/١٥ م - عدد ٤٤٦١.

www.mtenback.com

منهم أساتذة كانت أسماؤهم تجلجل في أذهاننا وعرفت زملاء من جميع أقطار الأرض الواسعة قذفت بهم ظروف الحياة إلى هناك.

وعرفت من العادات وتقاليد الحياة ومصطلحات الشعوب الشيء الذي لم يخطر ببالي عندما كنت هنا فتعلمت من الحياة وكسبت من الأصدقاء مالم يتوفر لي مثله لو بقيت على الدراسة في بطون الكتب عشرات السنين.

ثم عدت إلى أساتذتي الأوائل لأكون زميلا لهم.

عرفتهم وأنا طالب يقدر لأستاذه علمه وخلقه وحبه لطلاب العلم وعرفتهم زميلا أو بحكم الزميل فأدركت الجانب الآخر الذي لم أعرفه طالبًا، الجانب الذي لا تحده علاقات رسمية ولا تزامنه مفارقات علمية واجتماعية، وإذا هذا الجانب الذي لم أستطع معرفته يوم كنت طالبًا في الجامعة يبز الاعجاب الكبير الذي كانت تفرضه قدرتهم العلمية التي بهرونا بها في صالات الدرس وفي تقليب المسائل ومعالجة النظريات النقدية والأدبية والبلاغية.

لقد كنت سعيدًا بتتلمذي على هذه النخبة.. هؤلاء الكبار بلغة عمنا زيدان وليس بمرور السنين فهم في مقياس الزمن لا يزالون يسيرون بخطوات وئيدة نحو سني جائزة الدولة التقديرية[1] ولما يدركوها بعد، وكنت سعيدًا أكثر من ذلك بزمالتي لهم بعد أن أجزت لنفسي هذه الزمالة.

قلت كلمة في كلية الآداب فسمعت منهم كل ما يرضي واتصلت بأحدهم لأطمئن على صحته وكان متوعكا في بيته شفاه الله فسألني وتمنى أنه سمع ما قلت، وأنا أعرف أن الأمر لا يعدو التشجيع وما يمليه الخلق الكريم واللطف الذي تنضح به جوانح أستاذي وكلامي الذي أثنى عليه هو بعض ما تعلمت منه ولو كنت عنده طالبًا كما كنت قبل خمسة عشر عامًا لوضع أكثر من علامة استفهام على كلمتي التي تمنى سماعها - فيها التوجيه وفيها الموافقة وفيها الاعتراض لكنه طبع الكبار كما قلت لكم.

---

(١) حدد لمن يستحق الجائزة بلوغ الخمسين ولكن الجائزة التقديرية أصابتها سكتة قلبية مفاجئة فماتت قبل أن تبلغ سن الخمسين رحمها الله رحمة واسعة.

www.mtenback.com

كبير آخر من هؤلاء الكبار لقيني في ردهات جامعة الملك سعود في الدرعية فشد على يدي ودار بي دورة طويلة في الجامعة وقال يا أخي هذه الجامعة كنا نحلم بها منذ عشرين عامًا.. أنتم سعداء بدأتم حياتكم الجامعية في جامعة كهذه.

وكان ردي بالموافقة نعم إنها جامعة تستاهل هذا الاسم وانجاز حضاري كبير يفخر به كل من ينتسب إلى هذه الأرض شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا.

رأيت الجامعات ذات الخمسمائة سنة عمرًا ودرست في أكثر من جامعة في الغرب وزرت أكثر الجامعات في أوربا ورأيت ما كنت أتمنى أن أرى بعضه في بلادي ولم أطمع بمثله.

تمنيت أن يكون لنا وعندنا فى بلادنا شيء يشبه ما رأيت في الجامعات الغربية. أمنية وحلم ما كنت أطمع في تحقيقه في حياتي على الأقل حتى رأيت جامعة الملك سعود بالدرعية واستقررت فيها، وقد أخذتني الفرحة بالإنجاز الكبير وأنستني الكتابة عنها في وقت بداية العمل فيها والانتقال إليها، لا لم أنس لكن لم أصدق أن يتحقق لنا نحن أبناء هذه الأرض مثل هذا الإنجاز الحضاري الضخم فسكت فصلاً كاملاً أحمد الله على فضله ومنه وعطائه الواسع، وعرفت بعد فصل كامل أننا حقًا في جامعة وأن هذا الكيان الكبير قد تم فعلا على أرضنا لنا ولأبنائنا وللأجيال القادمة التي ستشهد أننا لم ننسهم، إنجاز يشهد بالاخلاص، وبقدرة ابن هذه الأرض وناس هذا التراب الطيب على حسن التخطيط. بدأت الجامعة قبل عقدين من الزمان وكان أهلنا في الرياض لا يعرفون الاسم الجديد، يسمونها المدرسة الكبيرة المدرسة التي علمهم الإسلام وظيفتها في المجتمع المسلم يعرفونها ويعرفون أن الأسماء تتشابه والتعظيم يأتي صفات فوصفوها بالكبر.

أتى الطلاب يسألون عن الجامعة فقال الناس أنهم لا يعرفون الجامعة ولكن يعرفون المدرسة الكبيرة والجامع الكبير ومن هذه الكلمة جاء شطر العنوان لهذه المقالة الإنشائية التي أكتبها رسالة حب لجامعة الملك سعود بعد أن أصبحت

www.mtenback.com

جامعة كبيرة كما كان أهل المدينة الطيبة الوادعة يسمونها قبل عقدين من الزمان.

الإعجاب بالجامعة الكبيرة أنطق الشعراء من أبنائها الذين كانوا فيها طلابا وكانوا فيها أساتذة وبذلوا في سبيلها وردوا لها كل جميل.. فأنشد شاعر الجامعة أسامة عبد الرحمن قصيدته العصماء، لقد هزنا شعر أسامة وحركنا قبل ذلك العمل الكبير والإنجاز الضخم وطربنا مع الشاعر لأنه يصف واقعا نعيشه وعملا نحسه ونتفاعل معه ولم ينطلق من أودية الأوهام، لهذا كان شعره شعورًا يشاركه فيه كل من رأى هذا المعلم البارز الذي شارك في بنائه أكثر من جهد بذل على مستوى الدولة وعلى مستوى الجامعة. أمة شاركت ورجال فكروا وأسسوا وبدأوا العمل وآخرون قدموا المشورة والرأي ومثلهم بدأ التنفيذ وأتى من سار في الطريق وأتم البناء، نبني كما كانت أوائلنا تبني ونصنع فوق ما صنعوا.

مرحى للجامعة وشكرًا لكل عمل صامت مفيد..

وشكرًا لمن خطط وفكر وعمل عملاً حيا مشاهدًا وهنيئًا للأمة كلها بالجامعة هذه، وبالجامعات الأخرى، وهنيئًا لطلاب جامعة الملك سعود وأساتذتها فهم في جامعة كما قال أستاذي، وبعد عام أو عامين سيكون طلابنا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في جامعة أيضًا وسيكون لكل طالب جامعة إن شاء الله، حقق الله الآمال وشكرا لله الذى وعد بالزيادة للشاكرين ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ وثناء واعترافًا بالجميل لكل مخلص خدم الأهداف الكبيرة لهذه الأمة المجيدة.

مقطع من قصيدة الجامعة للشاعر أسامة عبد الرحمن:

أذكرت يوم طرقت بابك طالبا ... عشق الشذى كبقية الطلاب
يا أيها الصرح الذي أحببته ... ودخلته من أوسع الأبواب
فيك التقيت بكل ماغرس الصبا ... وبك التقيت بأصدق الأحباب
ولقيت حتى في سرابك متعة ... أرأيت أية متعة.. بسراب
كانت حروفك وهي في ريعانها ... ورد الربيع بلونه الخلاب

www.mtenback.com

قد كنت والصحراء يبحث وجدها عن قطرة معزوفة بسحاب
صاحبت دفترها وفي صفحاته أرج من الرمان والأعناب
وإذا كتبت قصيدة همزية جمعت أبا تمام والسياب
فأنا أحبك حب صب مدنف ألقى لديك أجمل الآراب

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

التواصل الثقافي[1]

أظن أن هدف التواصل الثقافي هو نقل الموروث الفكري والحضاري من أمة إلى أخرى أو الاستفادة منه ومن معطياته، وهو أمر يحتاجه الإنسان إذا عرف كيف يستفيد منه في حدود قدراته وضمن أطر الثوابت من ثقافته والعطاء المتميز لحضارته ومنذ أن وجد الإنسان على ظهر الطبيعة وعاش في الكون ومارس الحياة وانتشر على أديم الأرض وتعامل مع الآخرين، وجدت له ثقافة وحضارة، وأوجد مشروعية الأخذ والعطاء فأثر وتأثر وأهم ما يعرفه الناس ويصلح التمثيل به لعملية الاستمرار الدائم للفكر وتواصل العطاء بين أمم الأرض وانتقال ما لدى كل أمة إلى الأخرى أو الاستفادة منه في محور الثقافة العامة والحضارة الإنسانية هو انتقال الأديان وتواصلها، بدءا بآدم عليه السلام واستمرارًا مع بنيه من بعده حتى نمت وأصبحت مثلا عليا تجسد فيها سابق الحضارة ولاحقها وأفرزت الأمم فكرًا راقيًا لأن التعاليم المثالية طورت فكر الإنسان وتصوره للحياة ولما بعد الحياة، للناس من حوله. والحضارة العربية الإسلامية في بداية أمرها كانت موصلا قويا ربط ما سبق من موروثات فكرية ودينية. بما لحق من عناصر الفكر ونماذج الادراك بانتقاء نماذج حية نامية وإن كانت سابقة على وجوده ولم يتجاهل الفكر البشري ومقوماته ولم يلغ شيئًا صالحًا من الحضارة الإنسانية وجاء عن الرسول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وهذا ما يؤيد ما نحن بصدد الحديث عنه وهو استمرار عطاء الفكر والمد الثقافي النامي في الحياة وعدم الانقطاع أو الاستغناء عن الصالح من الفكر سواء الذي وجد قبل الحضارة والثقافة العربية الإسلامية أو الذي جاء بعدها، والتواصل الحضاري الفكري والثقافي بين أمم الأرض وحضاراتها غاية سعى الإنسان

---

(١) الجزيرة ١٤٠٦/٨/١٢ هـ - ١٩٨٦/٤/٢١ م - عدد ٤٩٥٣.

www.mtenback.com

لتحقيق الاستفادة من الكثير منها منذ كان له سالف يسبق إلى العطاء والإبداع ولاحق يعرف كيف يختار.

والتواصل الثقافي أو الايصال - فكرة ومبدأ - أمر لا يختلف الواعون من الناس على ضرورة الأخذ به واستغلاله. ولكن الاختلاف يأتي حول عملية الايصال وفنيات التقبل وبواعث الحاجة واستعداد الذهن الذي يراد التوصيل إليه وسلامة العقل الذي يقوم بعملية الايصال ومدى الحاجة إلى إيصال نماذج فكرية وانتقال أسس معرفية معينة.

والفكر الإنساني يمثل دورة كاملة للحياة التي يعيشها مجتمع من الناس يصور عطاءه الذهني ويفرز أنواعًا ونماذج حضارية تميزه عن غيره وتحدد مسيره وتسجل أطوار نمو الفكر عنده عبر مرحلة البناء الطويلة. والفكر كالنبات ينمو فى أرض ويموت في أخرى، وتتشكل صورته النهائية في بيئة خاصة تقبل نماذجه وتكون له المحاضن الصالحة لبقائه واستمرار عطائه، والبيئة الفكرية كالتربة الزراعية التي ينمو فيها نوع خاص من النبات بينما يموت في تربة أخرى فما يحي مثلا من الأعشاب والأحراش والغابات تحت خط الاستواء وفي معدل حرارة عالية وأمطار مستديمة غير ذلك النبات الذي يعيش في درجة حرارة لا تزيد عن الصفر كثيرًا، ولكل ثقافة بيئتها الخاصة التي كونت عادات الإنسان وأصلت تقاليده وخصائص حياته وميزته عن غيره من البشر صانعي الحضارات.

ومع التسليم المطلق بإمكانية نقل مثاليات الفكر الإنساني وتحسس مواطن الجمال الفني وتذوق الإبداع فيه، والاستمتاع بالعطاء المشترك، فإنه من المستحيل نقل جوهر الثقافة وتوريده إلى بيئة ثقافية أخرى مغايرة لبيئته، لأن الثقافة أوجدها ذوق متميز عن الأذواق الأخرى وانطلقت من عادات وتقاليد ومفاهيم اجتماعية متميزة قد لا تتوفر أسباب بقائها عند الناقلين لها والمتلقين.

التأثر الثقافي فى الماضي:

كان أخذ الأمم وتأثرها بالثقافات التي سبقتها في الماضي أخذًا بطيئًا هادئًا وتمثلاً واعيًا لنماذج الأخذ والاختيار وكان تأثير الحضارات السابقة في اللاحقة

www.mtenback.com

طبيعيًّا ليس فيه شيء من الاندفاع والاصرار والتوجه الذهني المسبق لعملية النقل دون الشعور بحاجة للمنقول.

والحضارة عندما ينضب عطاؤها تصبح تاريخًا مشتركًا للإنسانية، مثل الحضارتين الأغريقية واللاتينية اللتين عاشتا وازدهر بهما الفكر والأدب والفن ردحا من الزمان فماتتا وبموتهما مات عنصر البغي فيهما ومات الخوف منهما وأصبح فكرهما وأدبهما حقًّا مشاعًا أخذت منه الحضارات التي أتت بعدهما بقدر ما يلائم طبيعتها ويتفق مع ذوق أهلها ويبعث الجمال عندهم. . أما الأخذ من الحضارات الحية والأفكار المعاصرة فيختلف كل الاختلاف عن الحضارات الماضية. . لأن الأدب الحي والفكر المعاصر ينطوي على مبدأ التحدي وفيه الكثير من العدوان على ما يخالفه وما لايتفق معه، وفيه عنصر الابتزاز والطغيان والتفوق العددي والتنظيمي. . إن لم يكن الموضوعي والفني. . والتواصل على هذا الشكل ليس تواصلاً فكريًا وثقافيًا[1] لاختلال أدني درجات التكافؤ بين المتواصلين وإنما يقصد منه الضم والانطواء وتضاؤل الضعيف أمام عملاق العصر الحاضر وجبروته، والتحدي غير وارد عند أصحاب التواصل، كما أن المساواة بين الكثير من الحضارات التي تصنف في خانة الزمن الماضي مفقودة حتى وأن كان ماضيها باذخا عظيمًا لأن قدرة القائمين عليها في الحاضر تقعد بها، وتسيء إليها مفاهيم أهلها لعملية التواصل الثقافي والانفتاح الذي يطنطن بها الداعون للتواصل ولعل ابن خلدون كان صادقًا عندما صنف الغالب وقرنه بسلوك المغلوب.

نحن والتواصل الثقافي :

وعلى الرغم من ذلك فنحن نطلب التواصل الثقافي في الحاضر ونسعى إلى الاستفادة مما حولنا من الثقافات المعاصرة والماضية ونطالب بالانفتاح في حدود ما تسمح به ثقافتنا وأسس منطلقات تفكيرنا مثلما يطالب بذلك المتواصلون عبر

---

(١) كتب هذا المقال بعد عقد ندوة عن التواصل الثقافي نظمها منتدى التنمية في مدينة الرياض وطرحت بعض الآراء عن أهمية التواصل وكيفتها.

www.mtenback.com

الدوائر المغلقة . . ولا أظن هناك من يريد قفل الأبواب في وجه الثقافة أو الأخذ الواعي منها بما نستطيع فهمه وهضمه ومعرفته حتى وإن كانت آتية من وراء البحار إذا كان ذلك يطور ثقافتنا ويحيى ما أندرس منها ويعيد تجديد شباب الفكر الأصيل والعطاء الموروث، ونريد أن يكون التواصل الثقافي وسيلة غايتها بعث مالدينا من موروث ثقافي عظيم.

والذين لم تسمح دوائر التواصل الثقافي المغلقة[1] بسماع آرائهم أول من طرح مبدأ التواصل الثقافي ومواجهة الواقع الذي يعيشه عالمنا وتعيشه ثقافتنا أما أصحاب «التواصل الثقافي عبر الدوائر المغلقة» الذين يصفون جزءا أساسيًّا من ثقافتنا العربية بالجمود وعدم أمكانية التطور فهم الذين يرددون عبارات التواصل الأجوف ويرددون مضامين الفهم المعكوس، الذين ينظرون إلى ثقافتهم وثقافة أمتهم على أنها أجزاء لا يتضح موضوع الجمال فيها حتى تعكسها صفحة مرآة الثقافات الشرقية أو الغربية المعاصرة فى عيونهم، الذين لا يستطيعون النظر المباشر، والرؤية الذاتية، الذين يقرؤون تاريخ أمتهم عبر الدوائر المغلقة والشلل المنتقاة، الذين يجتمعون باسم التواصل الثقافي فيوصدون الأبواب، نقول لهم معذرة للتواصل الثقافي ومعذرة لمثل هذه الأفكار.

(١) لم يدع لندوة التواصل أحد من خارج أعضائها.

www.mtenback.com

الظروف الاجتماعية المتغيرة[1]

نحن فى هذه الظروف المتغيرة أحوج ما نكون إلى النقد الهادف البناء الذي يقوم على الملاحظة الواعية للظواهر الاجتماعية التي يعيش المجتمع خلالها تحولات فكرية ومادية هامة ويقطع فى خطوات تقدمه مراحل تكوينية لابد أن نعيشها معا بحذر فهي خطيرة، إن لم يحسن توجيهه معها إلى ما يتفق مع حضارته العريقة وعاداته الصالحة ومثله العليا، فسيترتب على هذه القفزات السريعة مشاكل لا حصر لها ويصعب علاجها بعد تفاقمها واتساع مجالها: وتحسبا لهذا لابد أن تتعاون جهود كبيرة على جميع المستويات لتهيئة الظروف المتفقة مع تطلعاتنا إلى المستقبل المنشود والمحافظة على تراث الأمة الأصيل حتى نأخذ حظنا وافرا من حضارة اليوم ونضيف إلى القديم جديدا من نوعه يسير على نهجه ويتفق مع خطه الأعلى والشيء الذى لا يختلف عليه اثنان أن مجتمعنا اليوم أقرب إلى الفطرة وبساطة السلوك فى الوقت الذي يملك فيه ما يحتاجه العالم المحيط به من الشرق والغرب ويتكالب عليه، وسيسخر هذا العالم خيراته وقدراته الفكرية والفنية لجذب أكبر قسط ممكن ويضع في طريق هذا الجذب من المغريات ما لا يستطيع مجتمع نام - يفسر الأمور بظواهرها ويأخذها على علاتها - الصمود والتأنى أمامها ليأخذ ما يتفق مع ظروفه ويلائم طباعه ويستطيع هضمه وتحويره ويرفض ما خالف ذلك من مغريات العصر، نحن في دور التجربة وقلما يبعد بنا التفكير إلى كوامن الأشياء التى «تقبل علينا أشباها نحورها» ومبدأ التجربة قد يكون معقولا إلى حد ما فى بعض مجالات الحياة قد نجرب أرباح التجارة وقد نجرب الالة وقد نجرب إنتاج المصنع وقد وقد..

لكن هناك أمور ليست قابلة للتجربة وليست خاضعة لقوانين التعديل

---

(١) اليمامة ١٣٩٧/٤/٥ هـ - ١٩٧٧/٣/٢٥ م - عدد ٤٤٣.

www.mtenback.com

ولا تقبل الإعادة لو أخفقت التجربة الأولى.

هناك الأفكار وهناك الشخصية الإسلامية التى تميزنا ونعتد بها وقبل هذا وبعده هناك الانتماء للدين والمحافظة عليه وهذه المقومات تعرضت لهزات عنيفة في المجتمعات الغربية التي سبقتنا إلى هذا التحول الاجتماعي تركتها جسما بلا روح واسما لغير مسمى، أما عندنا فإنا لنرجو ألا نتعرض لأقل الهزات الطارئة مع هذه الظروف المادية القادمة فأقل انحراف لا سمح الله في جيل اليوم قد يعرض مستقبل الأمة لكارثة يصعب تعديلها أو تلافي أضرارها، والتغيرات الاجتماعية التى تعيشها المنطقة فى الجزيرة والخليج هي في صميمها تحولات مادية صحبها تطلع إلى القفز السريع وإدراك ما بنته الأمم خلال القرون فى أعوام معدودة.

والوسيلة لديها واحدة هى المال والخيرات التي فجرها الله في ترابها ولم يكن في حيال هذا رصيد فكري متين بل صادف خواء وفراغا مخيفا وأمية متفشية ومن حسن الحظ أن تنبه بعض الحريصين للخطر وكثفوا جهودًا جبارة للواقع الذي تعيشه شعوبهم وحاولوا إعداد ما يعصم من المزالق التي قد تنتج عن الثراء والترف المادي الذي لم يسبقه تجارب واعية تفتح النوافذ المطلة على مراكز الابتزاز وأساليبها المختلفة تحت شتى الوسائل التي تبدو معقولة للوهلة الأولى والمتربصون بالأمة لهم من وسائل الذكاء ودهاء التدبير ما يستطيعون به أن يحققوا المكاسب والغايات التي يريدونها دون جعجعة أو ضجيج.

وإذا كان هناك قلة واعية مقدرة تعيش واقعها كما هو وتدرك واجبها وتعلم ما يراد بها، فإن الكثرة الساحقة ليست على هذا المستوى من الوعي ولا قريبة منه، وقد لا تستطيع القلة الوقوف دائما في سبيل اندفاع الكثرة إذا أتى يوم تهيج بها أهواؤها وتشيط غوغاؤها.

وأمام هذه الاحتمالات تبرز أهمية النقاد الاجتماعيين وحاجتنا إليهم في هذه المرحلة من أهم ما نحتاج ويجب أن نفسح المجال واسعا أمام النقد الهادف ليعطي رأيه ويملي أفكاره ويقذع سيل الاندفاع الجارف إلى بريق المستقبل

www.mtenback.com

المجهول ويقوم بدور التوعية العامة على مستوى الأمة ولكن حتى اليوم لم يبرز على المسرح العام نقاد من هؤلاء ولا نجد لهم أترا يقتفى ولا صوتا يحدث صدى.

والذين يتصدون للنقد في هذه الآونة ويندبون أنفسهم لمهمة النقد الاجتماعي يحاولون مد أفكارهم إلى كل مجالات الحياة ومشاكل المجتمع ويتقمصون شخصيات الوعاظ ويعالجون المشاكل بأساليب جافة قد لا يتقبلها الشباب بسهولة لأنهم في الغالب يدلون بآراء وأفكار مجردة وبعيدة من الواقع المحسوس والظاهر المشاهد.

ونقدهم لا يقوم على تتبع دقيق فاحص لعوامل الظاهرة الاجتماعية ومسبباتها وليس عندهم تحسس وعمق بالمشكلة التي يتعرضون لعلاجها ولا تنطلق حلولهم من واقع ولا تقوم على التعليل لمنشئها بقدر ما تقوم على المقارنة بين ماضي المجتمع وحاضره وأخلاقه اليوم وأخلاقه بالأمس لهذا فقدت آراؤهم روح الإقناع وحسن العرض والتبرير للظواهر الماثلة أمامهم.

ولبعدهم عن مجاراة التغير الاجتماعي بعدوا عن الحلول المعقولة وهذا ما يفسر مواقف الرفض المتكرر من جمهور القراء لآراء النقاد، وفي الحقيقة أن النقد الاجتماعي عندنا في إجازة مرضية وإنما نطلق اسم النقاد الاجتماعيين على من يتعرضون لعلاج هذه الظواهر تجوزا.

وهؤلاء يطلون على قرائهم من نوافذ أفكار عائمة على سيل الماضي البعيد ويختارون من ذلك الماضي نماذج الكمال الأخلاقي ولكن حتى وإن كانت هذه النماذج قمة في سمو الأخلاق. فبين تلك القمة التي يشيرون إليها وبين القاعدة التي يقف عليها مجتمع اليوم فراغ لم يستطع نقادنا أن يهيئوا وسيلة النقلة المناسبة لكي نصل القمة بالقاعدة وننتقل من مستوى السفح إليها وقبل البحث عن النماذج التاريخية عليهم أن يثبتوا ما يقنابأنهم ملمون بالجديد الحادث عارفون بالضار منه والنافع يقدمون لنا على ذلك البرهان من أنفسهم أنهم يقولون عن علم ويحدثون عن تجربة وأن يكون الاصلاح الذي يشيرون إليه متفق مع الواقع

www.mtenback.com

الذي نعيشه أما عندما يشيرون إى الاصلاح كما يرونه بمنظار الأفكار التاريخية ويريدون أن يكون التلويح بها كفيلاً بالطاعة والتسليم فأنا أشك بجدوى هذا.

وداء النقد لدينا أنه يسوق آراءه بلغة الاشارة ويعتمد على التلويح بما يريد وعلى المجتمع كلما نابه أمر أو حل به جديد أن ينتظر إشارة خاطفة تهديه إلى سواء السبيل، أما طرح المشكلة الاجتماعية وإعمال مواضع النقد فيها فلا.

والسبب في رأي أن النقاد أنفسهم لا يفهمون المشاكل الاجتماعية كما يجب فيعتمدون على الايحاء بما يسمعون أو يقرأون إن أصابوا وإلا قاربوا كما قال الشاعر (ذو الرمة) العربي الأول عندما سأل شاعرا آخر (الكميت) قال أنك تصف الشيء فتقع حوله فلا أستطيع أن أقول أصبت أو خطأت فقال له أو تدرى لماذا؟ قال لأني أصف الشيء ولم أره وإنما وصف لي قال صدقت هو ذاك - بدليل أنهم في بعض الأحيان يعالجون مشاكل ليس لها أثر فى المجتمع الذي يكتبون له..

ولنفرض أو لنصرح بكامل العبارة أننا لا نفهم لغة الاشارة ولا نتعظ من سرد القصة ولكن نحتاج إلى حقن من الصراحة وأضواء كاشفة من الوضوح وشرح واف ومكرر لأسباب المشاكل التي تنمو مع نمونا الاجتماعي أيا كان نوعها ولا يكفي هذا بل نريد وصف العلاج الذي لا يقوم على الفرضيات المحتملة بل على واقع المشكلة نظرية وتطبيقا ونريد أن يلغوا المطالبة بالأفكار المثالية التي يحبون أن يروا المجتمع متمسكا بها والنظرات العائمة على سطح الماضي ويأخذوا الواقع على ما به من خير وشر وعلى واقعه تقوم الدراسة للمشاكل وأول هذه المشاكل الخلط الغريب والتناقض المضحك بين العادات والتقاليد وأهمية التمسك بها وبين ما نود ونريد من متطلبات العصر التي لا غنى عنها.

إن آفة النقد لدينا انحيازه إلى جانب واحد وإلغاؤه كل ما يمكن أن يؤثر من الجوانب الأخرى وموقفنا المتشدد أمام كل قادم أحد هذه الآفات ولدينا أفكار مثالية تطرح دائما في مسار الظواهر الحديثة التي تجدُّ مع ما يجد من التغيرات

www.mtenback.com

الاجتماعية والفكرية والسلوكية. وكلما رأى الحريصون على الأخلاق ظاهرة جديدة تسوق بين يديها ومن خلفها النظرة التقليدية والعادة المعروفة (الناس أعداء ما جهلوا) التي اعتاد أن ينظر بها الناس إلى كل قادم جديد رأوا أنها نذر شر وأسباب بلاء فأسرعوا إلى التاريخ وقبلوا صفحات الكتب بحثا عن النموذج الأخلاقي وبدأوا يأخذون ويعيدون ويرددون من محاسن الماضي ما لا يبقى معه فضيلة لجديد، ولا يلبث الجديد المرفوض أن يلغى الماضي ويثبت وجوده ويأخذ مكانه باندفاع أكثر.

فتقل الثقة بالنقد والنقاد لأن الواقع أبطل تنبؤاتهم وأثبت عكسها.

إن ظروف صانعي التاريخ الذي يشار إليهم غير ظروفنا ومحيطهم غير محيطنا والتغير الاجتماعي لا يخضع لمنطق التاريخ مثلما يخضع لضرورات الجيل الواحد.

ونحن لا ننكر الأسوة الحسنة في تاريخنا الفكريوالحضاري والديني.

وإنما نسوق كل هذا حفاظا على أصل هذه الأشياء خشية أن يصيبها ضرر من جراء التغير الاجتماعي الذي نعيشه.

وندعو كل القادرين للمشاركة الميدانية وعلاج الظواهر التي يرونها طارئة جديدة يتتبعون خطواتها من المنبع ويسلسلون مسارها ويجددون الوسط الذي يمكن أن تعيش فيه وتشعبها في طبقات المجتمع المختلفة. ثم تقوم بعد ذلك وتعطى الكملة الأخيرة بامكان قبولها أو رفضها على بينة من الأمر والحكم عليها من واقعها، أتصبح هذه الظاهرة مشكلة أم أن المجتمع قادر على احتوائها وإذابتها حتى إذا ما أصبحت مشكلة لا سمح الله أو توفرت فيها عناصر المشكلة قام النقد بكشف أضرارها عن معرفة وإحاطة وحذر عن علم تثبت جدواه ويلزم الاقناع به وهنا يجد النقد من يسمع ويطيع..

www.mtenback.com

التحدي الثقافي[1]

لا يطمع الإنسان العاقل أن يعيش حياة تسير على ما يريد ويشتهي وعلى ما يود أن يراه ويحلم به. حياة بلا مشاكل وبلا عقبات ومنغصات لأن الحياة الخالية من المتاعب مثالية لا توجد إلا في خيال الشعراء ووجدانهم، ولو فرضنا وجودها فستكون بلا شك حياة فاترة مملة متخثرة لا يحبها الكثير من الناس ولا يرغبونها.. لأن المتغيرات والمواجهة في الحياة بين اليسر والشدة والقبول والرفض والأخذ والعطاء وما غير ذلك من اختلاف الناس في الرأي والفهم وومضات الادراك والتنبؤ لأحداث المستقبل التي تشع في عقول فئة من الناس وتظلم في أفئدة أخرى. والاحساس بهذا الاختلاف والتقابل عامل مهم يبعث الفكر وينشط دورة الحياة ويغري الإنسان الذي يعشق الحقيقة ويبحث عن الصالح لنفسه ولمجتمعه.. يغريه هذا ويجره إلى تمحيص المسائل واستقراء الواقع وتقليب الأمر على وجوهه حتى يجد الحل أو يقترب الصواب منه.. واحتمال الخطأ والصواب في الفكر والقناعة والممارسات الانسانية أمر وارد دون شك وشعور الانسان أو الأمة بأزمة ما في أي ناحية من نواحي الحياة التي يعيشها المجتمع يحرك الذهن ويوجد البدائل المناسبة للحياة التي لا يود الانسان أن يعيشها سواء كان ذلك في الحياة الفكرية أو الثقافية أو غيرها، ويوقظ هذا الشعور ملكة الاحتواء والتحكم في مسار حياة الفرد وحياة الجماعة حتى لا تنعرج به السبل لا سمح الله إلى غير الوجهة التي يتوخى منها الخير.

والمشكلات في حياة الإنسان تدفعه إلى العديد من الحلول والبحث عن الصالح منها وقد يلجأ في سبيل هذا البحث إلى المواجهة مع الكثير من المألوف والمحبوب، وفي مثل هذا الحال يقع بعض المجتهدين فى المتاعب التي تسبب لهم

---

(١) الجزيرة ٢/٤/١٤٠٥ هـ - ٣/١/١٩٨٥ م - عدد ٤٤٨٠.

www.mtenback.com

الإحراج ويقعون في أخطار الاجتهادات التي قد تضر وتؤلم والصادق مع نفسه من لا يرضى لفئة من مجتمعه أن تكون ضحية انسياق عاطفي غير مأمون العواقب بل لابد له أن يخوض معركة الحياة ويواجه المشكلات بصراحة وصدق مهما كلفه ذلك من شيء، ولا يكون الإنسان ناجحا في معركة الحياة حتى يتفاعل مع مشاكلها في إبان حدوثها ويدرك حجمها في وقت مبكر ويتوقع مسارها ويحدد رؤيته نحوها وما قد تؤول إليه بعد ذلك.

وعالمنا الإسلامي والعربي ضرب رقما قياسيا إذ تعددت مشاكله ومعاناته وحظه في تاريخه الحديث منها وفي أيامه الأخيرة حظ كبير. . فالمشكلات الكثيرة تملأ حيزه وتمتد في جنباته طولا وعرضا. . وأهله أنضاء القديم والمتجدد منها، بينما يستمر ادراكه لأخطار ما يواجه من تحديات أقل بكثير من ضراوتها مع أنها قد استبدت به وسيطرت عليه وعانى منها كل عناء. . ولم تكسبه معاناته تجربة جيدة للتعامل المنضبط مع الجديد في حياته ولا أعطته قدرة على تذليل المشكلات أو حلها، ولم يأخذ الحصانة الكافية التي تقيه طيش التصرفات التي تستجيب للصدى القادم من الآفاق وتنطلق على جناح العاطفة الجموح. . والسبب في ذلك منطلق الجدل الذي تدفعه الأهواء المبطنة التي لا يدرك أغراضها سواد الناس. . ولا يحدد هذه الأغراض العقل الواعي المتأمل.

وأكثر ما يعاني منه هذا العالم مشكلات جدلية لا يستطيع جمهور المختلفين حولها الاقناع بأي منها، ولا ينتهون إلى رأي قاطع تقوم فيه الحجة ويتضح فيه الصالح من الضار. وكل فريق يجد المنطق الذي يدفع به آراء الآخرين سواء كان سليما أم سقيما، وصاحب الرأي الأخير يكفيه استمرار الجدل حول آرائه.

فاستمر الجدل واستمرت المشكلات وتعامل أغلب الناس معها تعامل الاستسلام والقبول بالأمر الواقع وتعامل الانبهار بضخامة ما يواجه من تحديات كبيرة لم يجد حلاوة النصر عليها على الرغم من ما يخوض من متاعب ومع تعدد وتنوع المتغيرات في حياته المعاصرة وخطورة أثار بعض المشكلات على حاضره واستمرار آثارها على مستقبله فاجتهاده لا يعدو تعليل الظواهر والسلبيات التي يعيشها.

www.mtenback.com

فهو يواجه مثلا مشكلات في ثقافته يعزوها إلى طغيان الثقافات الوافدة ومزاحمتها وتفوقها في رأي بعض أبنائه على موروثه الثقافي الذي بعد عنه ولم يتعامل معه إلا قليلا وعلى أساس هذا القليل حكم على أن الموروث الثقافي لأمته أصبح غير كاف للحياة التي يعيشها الناس اليوم فانجذب للثقافة المعاصرة يأخذ منها ما استطاع ويجعلها منافسا قويا لثقافته وموروثه الحضاري الضخم مع أن اعتماده في أغلب الأحوال على تلقط التراجم المضطربة. ويواجه أيضا مشكلات في لغته التي أصبحت غريبة وبدأت تزاحمها الثقافة الدارجة وأحاديث السمر التى تستميل نسبة كبيرة من الأمة.

ومشكلات أخرى، ويقف أمام هذه المشكلات وغيرها عاجزا عن المواجهة الشجاعة التي تدفع المتاعب التي يعاني منها هذا العالم العربي والاسلامي للنظر في أبعادها وخطورتها، وسبب ذلك أنه لا يشعر بالمشكلة التي تواجهه في الوقت المناسب الذي يمكن فيه التصدي لها وشعوره بخطرها يأتي متأخرا جدا وبعد سنوات عديدة من بدايتها وبعد رسوخ المشكلات وتمكنها من حياته، وتعامله مع أعقاب الأمور هو الذي أفسد عليه الكثير من جهده في المكافحة الصحيحة المعقولة فيما يجدُّ في حياته من متغيرات يحتاج إلى معالجتها بحكمة ووعي وصبر.. مع أن المشكلات التي يعاني منها لا تتصف بالحدة والقطع وحرارة التأثير بل تأخذ صفة المهادنة والملاينة والمرونة، وترضى في موضع القدم الواحدة في أول الأمر ثم تنتقل خطوة أولى وثانية وثالثة وكل خطوة من هذه الخطوات يصعب التراجع عنها ومحو آثارها التي تتركها ومع مرور الوقت تصبح المشكلة مألوفة عند الناس ويصبح لها أنصار ومحبون ومدافعون عن وجودها.

فأزمة الثقافة التي نمر بها في الوقت الحاضر واحدة من المشكلات التي تواجهنا وهي من أخطرها وأقواها اتصالا بحياة الناس وكل من له اهتمام بمسير الثقافة يدرك ضعف اعتماد الناس على الثقافة العربية والإسلامية الموروثة، ويدرك عزوف كثير من المثقفين عن معطيات هذه الثقافة وانجذابهم إلى ثقافات طارئة ومخالفة لمفهوم الثقافة العربية ونهجها، فانحسر لهذا السبب الابداع والمد الطبيعي الأصيل للفكر العربي أمام التيار الجارف للفكر المعاصر.

www.mtenback.com

واحتوت تلك الثقافات والأفكار بقوة سلطانها المادي المسيطر ثقافتنا وأثرت في تفكيرنا وأصبح ما نعول عليه من موروثنا الثقافي شذرات ووقفات لا تطول كثيرا.

وإذا كان الوضع السياسي للأمة العربية معروفا وهو بلا شك مؤثر قوي في الاتجاه الفكري والنهج والسلوك فإن الوضع الثقافي لا يقل سوءا عن الوضع العسكري.. والسياسي بينما المفروض أن طغيان القوة السياسية والعسكرية للغرب ينذرنا بالخطر ويجعلنا نتمسك بثقافتنا أكثر من ذي قبل.

لقد حدث من قبل مثل هذا الوضع السياسي للأمة الإسلامية في القرنين السابع والثامن الهجريين عندما داهم التتار عاصمة الخلافة وقضوا على الدويلات الشرقية واتجهوا للغزو غربا حتى وصلوا إلى حدود مصر فأثارت تلك الظروف مخاوف الأمة على ثقافتها وخشيت أن تضيع هذه الثقافة فكان رد الفعل لدى الأمة أن هب العلماء يجمعون المصنفات الكبيرة.. ويعمقون الثقافة الفكرية العربية والإسلامية ويحشدون مصادر الثقافة في تلك المجموعات العظيمة خوفا من ضياع ثقافة الأمة واندثارها وقد نجحت الأمة برد العدوان واستعادة السلطان والقوة لأن المعتدي لم يستطع خلخلة ثقافتها الأصيلة ولم يستطع تبديدها إلى ثقافات طارئة وثقافات إقليمية وشعبية، وبقاء فكر الأمة وثقافتها قويين خفف قوة الاعتداء العسكري الذي تعرضت له.. ولم يلبث الأمر إلا قليلا حتى هزم الفكر والثقافة للعرب وللمسلمين القوة العسكرية للأعداء وأصبحوا أسرى الثقافة العربية فاتبعوها.

والثقافة التي تطغى اليوم على ثقافتنا لا تحتم على أحد الاندماج في مسارها ولم تفرض بقوة السلاح لكن طرحت البديل وتركت الخيار لمن يريد الأخذ أو الترك فانطلق الكثير من المغلوبين ثقافيا يأخذون بلا روية ويعجبون بثقافة العدو أيما إعجاب ويحاولون محاكاتها محاكاة ناقصة لم تصل إلى درجة الإبداع الذي يفعله أهل الثقافة أنفسهم، ولم نحافظ على ثقافتنا ونعود إليها ليكون لنا مد ثقافي متميز في حياتنا المعاصرة، ولم نستطع إقامة جسور الاتصال الذي يأخذ ويعطي وينتقي الجيد والأفضل والمفيد والصالح. لذلك سقط البعض في مسخ التقليد

ووقف في منتصف الطريق بين ثقافته وموروثه الحضاري وبين الثقافات الوافدة التي لم يستطع محاكاتها فضلا عن فهمها وتأملها. . وهذا ما يجعل البعض يفكر في فهم ناقص ويعيش الانفصال المؤثر في ممارساته الفكرية.

إن طبيعة التحدي تفرض علينا موقفا متميزا من الحضارة والثقافة الأجنبية الطارئة ونحن نقر جميعا أن أهل هذه الثقافة المسيطرة التي نعشقها ونعجب بها هم أعداؤنا ويريدون بنا سوءا ويريدون لثقافتنا كل شر. إن الأمة التي تعيش مرحلة الاعجاب بثقافة أمة أخرى وبتقاليدها تعد أسيرة هذا الاعجاب، وكلما زاد هذا الاعجاب نقص عامل التحدي لديها ونقص الاعتداد بفكرها.

والفكر هو الأساس الصالح للتحدي الذى تفرضه علينا الظروف التي نمر بها. وإذا ضعف عامل التحدي في مثل هذه الظروف بدأت مرحلة التراجع لا سمح الله وأخطر أنواع التراجع في الثقافة أن يضخم الفرع حتى يؤثى الأصل الضارب في العمق التاريخي.

إننا نعيش مشكلة ضبابية الفكر ولولا ذلك ما كان للثقافة الوافدة هذا المكان في نفوسنا، ولا كان للفزع الذي تفرع[1] وبعد عن الأصل هذه القوة والتأثير لو أدركنا منذ البداية ما تؤول إليه هذه الفروع، إننا في أمس الحاجة إلى وضع كل شيء في حيزه الذي يحتله والتعامل معه على هذا الأساس.

---

(١) يعنى بذلك الاهتمام بالعامية الذي ظهر في البلاد العربية في هذا الوقت.

وجاء مصحف المدينة[1]

قبل ما يقرب من ألف وأربعمائة سنة مضت كتب الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه المصحف الأول بالمدينة المنورة، وأرسل نسخًا منه إلى الأمصار الإسلامية وإلى الفاتحين الذين ساروا على هدى القرآن يحملونه فوق راياتهم يجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض يحكمون كتابه في حياتهم ويتبعون هديه..

فاتخذ مصحف عثمان إمامًا لكل مصاحف الأمة التي كانت تسير مسرعة في ذلك الوقت إلى آفاق الدنيا المعمورة تنشر دينها وسلطانها وتعلي كلمة الحق في أرض الله الواسعة، وسار معها المصحف أينما سارت نسخة وحيدة هي مصحف المدينة الذي اتخذ أساسًا تستنسخ منه مصاحف الأمة كلها.

وقد نسخ منذ ذلك الوقت حتى اليوم عدد لايحصيه إلا الله، وكان النساخ يقومون بدور المطابع اليوم فينسخون حاجة الناس من هذا المصحف الذي كان كتاب دين المسلمين وكتاب أدبهم وثقافتهم، وعليه نشأت علوم شتى تخدمه وتقوم عليه، حتى راجت حرفة النسخ وكثر الوراقون والنساخ، وعرف في كل مصر من أمصار الأمة نساخها الذين اشتهروا بجود الخط وإتقان صنعة الكتابة وتفننوا بها وأجادوا أنواعًا كثيرة من أشكال الخطوط التي عرفت.

وقد تميز رسم المصحف العثماني - نسبة إلى مصحف الخليفة عثمان - وحفظ شكل الرسم الذي ارتضاه أولئك النفر من قريش وزيد بن ثابت من الأنصار للنسخة الأولى التي أجمع عليها القراء وشهد بصحة قراءتها جمهور الصحابة رضي الله عنهم، وقد بقي للمدينة المنورة الفضل في نشر أول نسخة

---

(١) الجزيرة ٢/١/١٤٠٥هـ - ١٩/٦/١٩٨٥م - عدد ٤٦٤٧.

من القرآن الكريم وتعميمها على الأمصار الإسلامية ولكن دورها لم يكن قويا بعد تلك البداية المؤثرة التي قررت مصير المصحف الإمام، وجمعت الناس على أخطر قرار اتخذه الخليفة الراشد بل أخطر قرار اتخذ منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا إذ حفظ الله هذه الأمة من الاختلاف في قراءة مصحفها وعافاها من سوء التأويل، ورحم الله عثمان لقد كان في عمله هذا عظيمًا يستحق من الأمة الدعوة له بالرحمة جزاء ما قدم من حزم في الأمر وقطع لدابر الاختلاف الذي كاد يقع لولا حزمه وغيرته على أمة محمد فجزاه الله عنها خيرًا..

صدر مصحف عثمان أو المصحف الإمام من المدينة المنورة لأول مرة في تاريخه ثم تضاءل بعد ذلك دورها عندما انتقلت الخلافة منها وأنتقل معها السلطان ومركز القيادة إلى أجزاء أخرى من العالم الإسلامي، ولكن الإهتمام بنشر المصحف والعناية به استمرا أنى كانت قوة المسلمين ودولتهم حتى عرفت في العصور الحديثة آلة الطباعة وانتشرت المطابع في الأرض وفي العالم الإسلامي فكان لابد من الاستفادة من هذا العلم الحديث لسد حاجة الملايين من المسلمين الذين يحرصون على قراءة كتاب الله واقتنائه. وإن كان المتتبعون لتاريخ الطباعة يقولون : إن المسلمين قد أحجموا عن استغلال المطابع الحديثة في بداية الأمر ولم يسمح بطباعة القرآن إلا في عهد متأخر بالنسبة لاختراع المطابع، المهم أن طباعة المصحف بدأت على أي حال وبدأت بداية جيدة وقوية ذللت فيها كثير من فنيات المطابع لتلائم الرسم الصحيح للقرآن الكريم وتبقي على رسم المصحف الأول.

وقد طبع من القرآن ملايين النسخ وطبع عشرات المرات في أكثر بلاد المسلمين وفي غير ذلك، طبع في الهند وفي الباكستان وطبع في تركيا وفي غيرها وطبع في مصر وفي الشام وتفاوتت طباعته من حيث الجودة والاتقان ومن حيث جمال الورق ولونه وعلامات الضبط وغير ذلك، وكان من أجود ما رأيت بالنسبة للطبعات العربية طبعة مصر القديمة التي اعتمدت عليها الطبعة التي صدرت في قطر عام ١٤٠٢ هـ فقد كانت طبعة أنيقة واضحة تلائم المشارقة بعدت أسطرها بعض البعد وتميزت كلماتها وحروفها وكذلك الآيات فيها وحزب المصحف

وأتقن كل الاتقان وضبط بشكل يريح القارئ ويساعده على القراءة ويجنبه الخطأ بقدر المستطاع.

وكان لابد لهذه البلاد التي منّ الله عليها بفضله واكرمها بحراسة مقدسات المسلمين ومنها المدينة المنورة ذات السبق الأول في نشر كتاب الله، كان لابد لها من دور نحو كتاب الله ونحو المسلمين الذين يتجهون إلى هذه المقدسات في وجوههم وقلوبهم خمس مرات في اليوم فقامت بدورها بعد أن اكتملت أسباب النجاح لديها بتوفيق من الله لتعيد إلى منبع النور ومهبط الوحي ومهد الرسالة مكانتها التي كانت لها وقوتها، وقد هيأ الله ذلك فأقيم «مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة» وافتتح المجمع بنفسه في زيارته للمدينة المنورة في العام الماضي وأمر ببدء العمل فطبع المصحف بالمدينة مرة أخرى بعد ألف وأربعمائة سنة لينتشر مصحفها المطبوع فيها في كل أقطار المعمورة كما انتشر مصحفها المخطوط في أول مرة في التاريخ.

وسيكون مصحف المدينة إن شاء الله هو مصحف كل المسلمين يقرأونه أينما كانوا، ولن يكون ذلك صعبا على ما أُعد للمصحف من اعتمادات وقدرات مالية كبيرة تضمن توزيعه وسرعة انتشاره وبعدد كاف يسد الحاجة المتزايدة على طلب القرآن.

بدأ الإنتاج ووصل أوله بضعة آلاف خصصت لحرمي مكة والمدينة وهي من القطع المتوسط جاءت طبعة ممتازة تفوق أكثر ما رأيت من طبعات سبقتها ضبطت ضبطا جيدا وحزبت وبدأت كل صفحة منها ببداية آية وانتهت بنهاية أخرى وهذا عمل فني شاق.

وتميزت علامات الإعراب والضبط وظهرت واضحة جلية وأحيطت صفحاتها باطار ذهبي مزخرف، وورقها جميل صقيل لاتمل العين النظر به ولونه أبيض مشرب بصفرة.

ثم ألحق في آخره تعريف بُيِّن فيه مدلول بعض الاصطلاحات وعلامات الضبط التي اتبعت وأشير إلى المصادر التي كان الاعتماد عليها كما أشير إلى

أسمائها ونوه على بعض ما يجب التنويه عنه حول السجدات وعدد الآيات وغير ذلك مما يسهل على قارئ مصحف المدينة فهم بعض الرموز التي رأت اللجنة وضعها. أما الغلاف فهو أخضر داكن زخرف جانبه الأيمن وذهب في مستطيلات أدخل بعضها في بعض، وجلد تجليدا راقيا يستطيع القارئ أن يثنيه ويقابل طرفي صفحاته ببعض دون الخوف من تمزقه أوانحلال أوراقه.

حصلت على نسخة من «مصحف المدينة النبوية» هكذا كان اسمه فسرني أن حقق الله انجاز عمل عظيم في المدينة في المملكة العربية السعودية وهيأه ليقدمه أبناء بلادنا واجبا عليهم يخدمون به كتابهم وإخوانهم من المسلمين الذين سيفرحون بقراءة مصحف المدينة المنورة مرة أخرى في تاريخ الطباعة الحديثة وسيرون المدينة تعود إلى مكانتها ويعود إليها الماضي المجيد الذي كان لها فيبدأ منها المصحف مطبوعا كما بدأ منها مخطوطا، وإذا كنت أكتب واصفًا إنجاز المصحف الذي أرجو أن يكون أجره لمن أمر به ولمن عمل على إظهاره من العلماء والقراء فإن هذا لايمنع من ذكر بعض الملاحظات اليسيرة عسى أن يكون في ذلك خدمة أوفى وأكمل ليصل كتاب الله إلى الكمال فى العمل الفني والاتقان :

أول ملاحظة : هي الاسم الذي اختير له «مصحف المدينة النبوية» إن للمدينة الكثير من الأسماء أشهرها المدينة المنورة ومنها طيبة الطيبة ودار الهجرة وغير ذلك من الأسماء والصفات وكلها تطلق على البلدة التي اختارها الله مهاجرًا لنبيه وحببها إليه وجعلها مقر الإسلام ومنطلق الدعوة وقد ذكر في فضلها وأسمائها الكثير، لكن أشهر أسمائها هو المدينة المنورة وعامة الناس إذا سمعوا المدينة معرفة باللام لايفهمون سواها ولا أدرى لماذا اختير اسم «مصحف المدينة النبوية» وعدل عن مصحف المدينة المنورة.

إن المدينة النبوية وإن كان اسما صحيحًا إلا أنه غير شائع وغير مألوف لدى الناس على اللسان والأذن والعدول عن الاسم السهل المعروف المصطلح عليه بين عامة الناس لا أجد له مبررا في رأيي ولعل الذين اختاروا الاسم يعيدون النظر ويطلقون اسم مصحف المدينة المنورة أخذًا بمبدأ الأسهل والأقرب وتوحيدًا للاسم الذي تعارف عليه الناس وهو المدينة المنورة أما ما سوى ذلك

فيعد من صفات المدينة كما سبق أن أشرت وليست أسماء لها.

أما الملاحظة الثانية وهي المهمة فأرجو أن يتسع لها صدر من منّ الله عليهم وأكرمهم بأن جعلهم ممن له فضل الاشراف والاعداد والعمل على إنجاز مصحف المدينة، وملاحظتي هي على تلك الأسماء والألقاب العلمية والادارية التي ذيل بها المصحف وأثقل بها كتاب الله تحت عنوان (قرار اللجنة) إن أبسط المسلمين يعرف ما يتطلب عمل مثل عمل مصحف المدينة من جهد ويدرك أن عشرات الأشخاص سيكونون وراء الانجاز النهائي وكل ذلك من قبيل العمل الاداري الذي لاعلاقة لقارئ المصحف به ولايزيد ذكرها ولاينقص من قيمة المصحف عنده شيئًا وتلك القرارات والأسماء وألقابها يجب ألا تكون بين دفتي القرآن ومكانها ملف خاص في مطبعة المصحف لمن أراد الرجوع إليها. وقد ذكرت أن المصحف طبع عشرات المرات وجرد كل التجريد من الأسماء والقرارات الادارية ما عدا بعض طبعات مصر فقد أشير إلى اسمين أو ثلاثة من قراء الديار المصرية.

أما مصحف المدينة فقد جاء قرار اللجنة ليضيف أعباء وصفحات عدة على كتاب الله تحمل أسماء عشرات القراء والأئمة والحفاظ وبعض المسؤولين وألقابهم العلمية والادارية حشرت حشرا وأصر على ذكر بعضها إصرارا وهو شيء كان الأفضل أن يجرد منه القرآن، ويكفي عن ذلك كله ما وضع في مقدمة المصحف من تعريف بالأمر الملكي الذي صدر بطبعه ثم كتابة اسم مجمع الملك فهد كما حصل في آخر صفحة منه ففي ذلك تعريف كامل بالمصحف وأين طبع واسم جلالة الملك الذي أمر بطبعه وكان وراء إنجازه.

أما اسماء العلماء الذين استشيروا والاداريين الذين باشروا العمل ومن حتمت عليهم مسؤولياتهم الوظيفية والرسمية المشاركة بشيء يتعلق بالانجاز فالواجب أن تكون تلك الأشياء في ملف خاص وليس بين دفتي المصحف.

فكتاب الله أكرم وأعظم على الله وعلى عامة المسلمين من أن يثقل بعدد من الصفحات التي لاتضيف فائدة لقراء القرآن بل تثقل عليهم وتزيد حملهم،

والمسلمون يعلمون أنه قد حث على تجريد القرآن من كل شيء حتى أفضل كلام وأبلغه بعد القرآن وهو حديث الرسول ﷺ منع المسلمون من كتابته مع القرآن فلماذا تضاف الأسماء إلى المصحف؟ إذا كان الغرض هو طمأنة الناس على أن هذه الطبعة أعدت بمعرفة كبار القراء على معنى «فانظروا عمن تأخذون دينكم» فالأحوط أن يشار إلى ثلاثة أسماء أو أربعة من العلماء الذين باشروا العمل فعلا ويشار إلى أن هذه الطبعة قد أعدت وأشرف عليها نخبة من كبار الحفاظ والقراء والعلماء وهذا يكفي...

الفصل الرابع

قصة التعليم العالى فى البلاد

فروع الجامعات
حاجة ملحة.. أم لا..؟[1]

نشطت الجامعات في السنوات الخمس الماضية بفتح الفروع لها في عدد من المدن، ومع أن فتح فرع للجامعة في مدينة أخرى أو منطقة بعيدة عن المقر الأصلي لها أمر معروف ومألوف إذا ألحت الحاجة بذلك، إلا أن تعدد الفروع لأكثر من جامعة في مدينة واحدة أمر يحتاج إلى شيء من التنسيق وإعادة النظر في الطريقة المتبعة حاليا، نقول ذلك مع قناعتنا بأن مدينة من المدن أو منطقة من المناطق قد تحتاج إلى فرع لجامعة تقوم فيه كليات متخصصة لتغطية حاجة المنطقة ولتستوعب من يرغب مواصلة الدراسة الجامعية من أبناء تلك المنطقة على الرغم من أن هناك أكثر من تحفظ على أن يقضي الشباب تعليمهم الجامعي فى المناطق التي قضوا فيها التعليم العام، إذ إن الأفضل أن يكون هناك اتصال مباشر واحتكاك بين أبناء المناطق جميعها خصوصا أثناء الدراسة الجامعية ليكون الانتماء للوطن الكبير أكثر منه للمدينة أو المنطقة - ريثما تكتمل متطلبات فتح الجامعة الكاملة فيها، وفتح الفروع للجامعات شيء لابد منه في باديء الأمر ليخفف الضغط والاقبال الشديد على مركز الجامعة ويحول دون الانتقال البشري والتحول السكاني من المدن والمناطق التى لا توجد فيها جامعة أو فرع للجامعة إلى مراكز الجامعات، ويتيح الفرصة لبعض الشباب الذين لا تسمح لهم الظروف بالانتقال إلى حيث الجامعات، بمواصلة الدراسة أينما كانوا، هذه هي الفوائد المرجوة من فتح فرع الجامعة، وقد يكون لفرع الجامعة في بعض المناطق في المملكة من الضرورة والأهمية ما لا يقل عن أهمية وضرورة الجامعة نفسها.

---

(١) الجزيرة ١٤٠٣/١٢/٧ هـ - ١٩٨٣/٩/١٤ م - عدد.

إلا أن الذي حدث في واقع الأمر هو تعدد فروع الجامعات في المدينة الواحدة وبعض هذه الفروع المتعددة تفتح في مدينة يوجد فيها جامعة قائمة أو أكثر من جامعة. . ولا شك أن الضرورة التي تدعو لفتح فرع الجامعة في منطقة ما تنتفي إذا وجدت جامعة في المكان نفسه وتنتفي بوجود فرع لجامعة أخرى في المنطقة، وليست هناك مبررات جلية لتعدد فروع الجامعات في المدينة الواحدة إذا أخذنا بعين النظر السياسة التعليمية العليا لجامعات المملكة القائمة على التكامل والتي هي في أساس الأمر امتداد وترسيخ لأهداف البلاد ومبادئها ومصالحها الوطنية.

بل إن أضرار التعدد لفروع الجامعات في المدينة الواحدة هي الجلية الواضحة أكاديميا وإداريا وماليا.

فمن الناحية الأكاديمية يحدث التكرار في التخصصات وتحدث الازدواجية وتتعدد الوسائل إلى الغاية الواحدة التي هي خدمة الوطن وأبنائه.

فيتكرر التخصص الواحد في فروع الجامعات في المدينة الواحدة من جانب وفي الجامعة الواحدة وفروعها من جانب آخر وهذا التكرار لا لزوم له ولا ضرورة تدعو إليه لو كان هناك شيء من التنسيق بين الجامعات وتحديد الأماكن التي تحتاج إلى فرع لجامعة معينة، فمثلا قسم الاقتصاد يتعدد في الجامعة الواحدة بتعدد فروعها، ويتعدد فى المدينة الواحدة بتعدد فروع الجامعات فيها وقسم الإدارة كذلك، وقس كثيرا من التخصصات على هذا.

بينما الهدف واحد وهو الحصول على عدد من الإداريين والإختصاصيين الذين يسدون الحاجة إلى هذا التخصص أو ذاك سواء تخرجوا من هذه الجامعة أو تلك.

مع أن الاقدام على فتح قسم من الأقسام يحتاج إلى تخطيط دقيق لمناهج هذا القسم ويحتاج إلى تطوير المناهج باستمرار ومتابعة نموها الطبيعي بعد ذلك لئلا يقلّ الأداء أو تنقص الكفاءة، وتعطل طاقات بشرية متخصصة ونصابا كاملا من المدرسين في كل قسم وهذه الطاقات المتخصصة ذات الكفاءة التي ترضاها الجامعات قليلة وإذا وجدت فهي تستقدم من الخارج، وإذا تعددت الفروع

للجامعات وتكررت التخصصات فيها تضاعفت حاجتها لهؤلاء بعدد الأقسام والتخصصات المكررة وحصل التنافس بين الجامعات ذات الهدف الواحد على المدرس.

ثم هي لا تستطيع أن تجد النوعية الممتازة بالقدر الكافي، وستحتاج إلى التنازل عن النوعية من أجل الكمية، مع أنه لابد من النصاب الكامل من المدرسين لكل قسم مهما كان عدد طلاب هذا القسم، وإذا تعددت التخصصات انقسم الطلاب عليها بأعداد أقل من طاقتها وفاتت فرصة الاستفادة من أعضاء هيئة التدريس الذين يحشدون لكل قسم وقد لا يكون لديهم إلا العدد القليل من الطلاب بالنسبة للفروع.

التطور فى المناهج

أما تطور المناهج فسيكون في حالة تكرر نشاط الجامعات وتعدده أقل بكثير بل قد لا يوجد تطور للمناهج على الاطلاق نتيجة تشتت جهود المتخصصين وانتمائهم إلى أكثر من جامعة، ونمثل على ذلك بتعدد معاهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، فقد تعددت هذه المعاهد مع أن المتخصصين في هذا المجال من أندر ما يمكن، ووجودهم معضلة تواجه أكثر الدول تقدما.

لأن تعليم اللغة لغير أهلها من أصعب التخصصات وأدقها وهو قدرة وملكة شخصية تنمو بالممارسة ولا تعتمد على معرفة اللغات فحسب وإنما تزكو بالاحتكاك وتعتمد على المحاكاة والتقليد للأصوات والقدرة على التعبير عن المعنى بالإشارة والحركة كما أن الاتصال المباشر والمستمر مع نوعيات الطلاب الذين يتعلمون اللغة عامل هام بالنسبة لتطوير تعليم اللغة لغير الناطقين بها، وفي تعليم اللغة الإنجليزية للأجانب نجد أن للعرب مشكلة عرفها المدرسون وحاولوا معالجتها وللصينيين مشكلة مختلفة عن مشكلة العرب، وللغربيين مشاكل سهلت كثيرا نتيجة الممارسة والخبرة وتكاتفت الجهود على تذليلها لصالح اللغة وطلابها.

وتعليم اللغة لا يعتمد على منهج مستمر وإنما يعتمد على الانتقاء والاختيار مما

يعرض المنهج وأساليب التدريس للتغيير من حين إلى آخر، ويحتاج إلى حصر وإحصاء للمشكلات التى تواجه المتعلم كما يحتاج إلى آلات ومختبرات صوتية وصور متحركة وناطقة مع أيدي ماهرة وقادرة على استعمال هذه المختبرات.

وكان الأولى والأجدى فى رأيي أن يوجد معهد واحد أو معهدان فقط تصهر فيه الجهود المبددة وتطور المناهج فيه لخدمة اللغة العربية وطلابها، وتحصر القلة من المتخصصين الذين يعملون بهذه المعاهد الكثيرة بفريق واحد أو بفريقين يعملان يدا واحدة لتطوير هذا النوع من التعليم وتأهيل طلاب الجامعات السعودية من غير العرب إلى المستوى المقبول الذى يمكنهم من متابعة الدراسة فى هذه الجامعات، وكل جامعة يجب أن توجه طلابها غير العرب إلى هذا المعهد لدراسة اللغة العربية وتلتزم بالصرف عليهم مدة الدراسة وتعتبر شهادته قبولا في الجامعة ومؤهلا للدراسة فيها.

وتعليم اللغة العربية لغير العرب رسالة مقدسة وواجب من واجبات الجامعات السعودية بالذات.

إداريا وماليا :

فتح فرع لإحدى الجامعات يحتاج إلى إدارات أساسية وإدارات مساعدة كما يحتاج إلى أعداد كبيرة من الموظفين والعمال وغيرهم وإلى العمادات المساعدة كعمادة شئون الطلاب وعمادة القبول والتسجيل كما سيكون من اللازم وجود المرافق الضرورية لكل فرع كالمطاعم والمكتبات، ومع تعدد فروع الجامعات في المدينة الواحدة فإن الأمر سيستدعي تكرار هذه العمادات والإدارات مع تكرار المرافق العامة التي مثلنا لها سابقا والتي ستصبح أعمالها ذات طابع زمني محدود مع أن التشغيل والصيانة يحتاج إلى قدرات بشرية مكررة، ويضيف أعباء مالية وإدارية مكررة.

لماذا تفتح الجامعة فروعًا؟

قيام الجامعة بفتح فروع لها أمر معروف ومألوف وبعض الجامعات الغربية لها أكثر من فرع في ولايات مختلفة وفي دول أخرى، ولكن لتلك الجامعات سياسات تعليمية تقتضي ذلك، فبعض تلك الجامعات لها مبادئ تلتزمها وتسعى لنشرها ولها أفكار تحاول ترويجها ولا يكفي أن توجد جامعة أو جامعات أخرى لاختلاف الأهداف وتباين الأغراض، وجامعات المملكة ليست لها سياسات تعليمية متباينة بل هي ذات هدف واحد هو خدمة الدين وحاجة الوطن.

وبعض الجامعات تفتح الفروع لأن لها مصادر مالية مستقلة وفائضة عن حاجتها مما يجعلها تستثمر هذا الفائض من مواردها المالية بالتوسع بشكل يضمن لها الاستمرار بأداء رسالتها، وجامعات المملكة ليست لها مصادر مالية متعددة، أما أن يكون تعدد فروع الجامعات عندنا هو بحجة أن لكل جامعة صبغة تخصصية معينة فالذي عليه الجامعات والذي تعنيه كلمة جامعة هو التنوع في المعارف والتعدد في التخصصات، والأساس أن يوجد فى كل جامعة كليات لجميع أنواع وأشكال المعرفة الإنسانية التي يحتاجها المجتمع، وليس هناك احتكار لفرع من فروع المعرفة يجب ألا تقوم به إلا جامعة بعينها.

أما إذا كان السبب في تعدد الفروع والتوسع بفتحها في المكان الواحد قد جاء نتيجة لقناعة المسئولين عن الجامعات ليستفيد كل القادرين على الاستفادة منها، ولتخفيف الضغط على الجامعات الأم، وحتى يكون لكل جامعة مساهمتها المشكورة في هذا المجال فهذه وجهة نظر صحيحة، لكن الأجدر والأنفع أن يوجد شيء من التفاهم والتنسيق بين كل الجامعات وأن تحدد المسئوليات وتخصص التبعات ويكون لكل جامعة قادرة على المشاركة علميا وإداريا منطقة معينة تكون مجالاً لنشاطها، فمثلاً منطقة «أ» تخصص لجامعة «جـ» ومنطقة «ب» توكل لجامعة «د» وهكذا، ويطلب من هذه الجامعة أن تفتح في هذه المنطقة من الكليات ما تراه مناسبا لوضع المنطقة وما تحتاج إليه من

تخصصات وتكون الجهود موجهة من جامعة واحدة إلى منطقة واحدة حتى تنمو الكليات والكليات المساعدة والإدارات الجامعية نموا طبيعيا في المنطقة موضع الاختيار ريثما يحين انفصال الفرع واستقلاله كجامعة قائمة بذاتها لها كل صفات الجامعة وخصائصها، وهذا العمل سيسرع بتكوين الجامعة المنتظرة لتلك المنطقة بدل تجزئة الكليات كفروع لجامعات عدة.

وعلى الرغم من أن المتبع الآن فيه تحريك للحياة العلمية وانعاش لها وقد يعد تدرجا طبيعيا فى نمو التعليم الجامعى في الظاهر إلا أن له سلبيات ستؤثر على مسير التعليم الجامعي فى المستقبل وعلى نوعيته، وقد يصبح التخلص من هذه السلبيات أمرا عسيرا بعد عدة سنوات[1].

(١) كتب هذا المقال منذ تسع سنوات مضت وأظن أن ما حذر منه قد وقع الآن.

التعليم والتقنية[1]

ذكرت في مقالة سابقة أشهر معوقات التعليم الفني في الماضي وذكرت أن تلك المعوقات كانت سببا لعدم تحقيق الأهداف التي ترجى منه، ولاشك أننا الآن نمر بمرحلة أفضل من حيث النظرة للتعليم كله الفني وغير الفني ولاأشك أيضا أنه قد حان الوقت الذي نعيد فيه ونراجع كل إيجابيات المراحل التي قطعها التعليم وسلبياتها منذ بدايته حتى وقتنا الحاضر لكي ننظر إلى كل أنواع التعليم ونقومه حسبما نحتاج إليه اليوم، وأمر المراجعة لايخص التعليم الفني وحده حتى وإن كنت أتحدث عنه في هذه المقالة، فقد آن الأوان كي نركز على أنواع وتخصصات نحتاجها في المرحلة القادمة. ونوجه إليها كثيرا من الاهتمام والعناية واضعين في الاعتبار أهداف المستقبل وحاجاته التي سيعيشها الجيل القادم والجيل الذي يليه، وهي بالتأكيد أهداف وحاجات ستختلف عما هو قائم الآن، وسنحتاج أنواعا كثيرة من التعليم ماكنا نحتاجها في الماضي القريب وسنحتاج إلى التركيز على أنواع معينة من التعليم وغيره على أرض الواقع ونمهد لها الطريق لتأخذ مكانها على أرض قوية صالحة للانطلاق المؤثر المنتج كما هي ديناميكية العملية التعليمية التي حققت نتائج إيجابية بالمملكة، والتعليم الفني أهم ما نحتاج إليه في الحاضر والمستقبل ولعل تعثره -إلى حد ما- فيما مضى يعتبر مراجعة مفيدة لنا في مستقبل التعليم.

فالطفرة في أنواع التعليم النظري أحدثت وستحدث تشبعا منه في الجامعات وقطاعات التعليم الأخرى، وقد بدأنا ندرك ضرورة ترشيد الاتجاه إلى قنوات محددة من التعليم وندرك خطورة الاتجاه الكمي إلى أنواع من التخصصات دون غيرها.

---

(١) الجزيرة ١٤٠٥/٥/٢٦ هـ - ١٩٨٥/٢/٢٦ م - عدد ٤٥٢٤.

وبدأ التوجيه بالنسبة لنتائج الاقبال الكبير على تخصصات قد لانحتاجها في المستقبل المنظور وقد ظهرت آراء تطالب بالتوقف قليلا أمام المرحلة القادمة ومناقشة الاتجاه إلى الأسهل من التخصصات وطالب بعض تلك الآراء بفرض قيود أوحجب بعض المزايا عن الذين يتجهون إلى بعض أنواع التعليم دون سواها.

ومراجعة ما نحتاج إليه من التعليم في المرحلة المقبلة أمر سيجعل صورة المستقبل واضحة أمام المخططين لمسار التعليم وخصوصا الفني منه، وسيساعدهم الآن وهم في موقف التقويم والمراجعة على رسم بداية صحيحة يبدأون بها مسارا جديدا للتعلم الفني برؤية بعيدة المدى وقائمة على المنهجية لمستقبل الأجيال التي ستأتي بعد. والدولة قد أدركت أهمية هذا المنهج الذي نتحدث عنه عندما أوضحت أهداف التعليم الفني بالذات قائلة (تعتبر تنمية الموارد البشرية السعودية القاعدة الأساسية لعملية التنمية وتهدف خطط التنمية الوطنية إلى وضع السياسات الضرورية لتنمية هذه الموارد).

وشروط تحقيق ما جاء بالجملة السابقة من تأهيل التنمية البشرية أن يكون التعليم الفني خاصة ممتدا صاعدا ومستمرا يكتمل فيه الهرم التعليمي ويقوم على أساس الاستمرار الرأسي والأفقي ولايجب أن يتوقف أحد ممن يلتحقون فيه عن مواصلة التعليم في أي مرحلة من مراحله العليا إذا توفرت لديه قدرة التحصيل العلمي.

كما يجب أن تكون هناك جسور وثيقة بين نوعي التعليم الفني والجامعي العام وتسهل السبل لنسبة كبيرة من خريجي الثانويات الفنية للالتحاق بما يماثل تخصصاتهم في التعليم الجامعي كما أن ضمان نسبة كبيرة من الأماكن في التعليم الفني وفي مراحله المتقدمة للذين تنخفض نسب تحصيلهم في التعليم الجامعي أمر مهم جدا لمزج العملية التعليمية وتحقيق مزيد من الروافد له فالذين لايستطيعون رفع نسبهم في الجامعات عدد كبير وقبول هؤلاء في الكليات الفنية خير من خروجهم من الجامعة بعد سنة أوسنتين أوثلاث سنوات بلانتيجة نافعة. واحتواء التعليم الفني لمثل هؤلاء الطلاب سيكون كسبا له، كما يجب أن

تقبل الكليات الفنية عددا من خريجي الثانوية العامة الذين تقل معدلاتهم عن المعدلات المطلوبة في التعليم العالي.

والأهم من ذلك ألا يكون هناك فصل تام بين نوعي التعليم الفني والجامعي بل يبقى الاتصال والأخذ والعطاء بينهما مكنا مع تميز كل جانب بخصائصه ومقوماته ولعل الخطة الخمسية الرابعة التي بدأت مع أول هذا العام ١٤٠٥/١٤٠٦ هـ والتي ستستمر خمس سنوات قادمة ستكون خطة يعتمد فيها على إعادة النظر في برامج التعليم كله.. وجعل التعليم الفني بالذات تعليما مقنعا للكثيرين الذين لازالوا محجمين عنه ومتسقا مع حاجات المملكة في المستقبل، ولعل التركيز في سنوات الخطة الحالية.. يكون على التعليم العالي ونشره مع التعليم العام الجامعي حتى يحبب العمل الصناعي وتنمى المواهب وتؤهل الأيدي العاملة تعطى مجالا رحبا للتخصص الفني لا من أجل سد الحاجة في بعض مرافق الصيانة وخدماتها، بل لتنمية القدرة الصناعية لدى أكبر عدد من الشباب الذين يلتحقون بالتعليم الفني وهذا الأمل لن يتحقق ما لم يكن هناك دفع قوي إلى تخطيط عملي يجعل الإعراض الحاصل اليوم عن التعليم الفني ترحيبا به وقبولا له في الغد القريب لتعتدل كفتا ميزان التعليم العام والفني.. ولابد في هذه الحال من معالجة الوهم الذي يتذرع به الكثيرون من الناس ويبررون به تأخر التعليم الفني لدينا وعدم الاقبال عليه حيث يقول الكثيرون منهم: إن العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية تقف ضده وتصرف الفرد عنه إلى مجالات العمل الأخرى.

لقد سمعنا مثل هذا الكلام يردد كثيرا والذي يردده أحد رجلين: رجل رأى بعينه وأمام يديه ظاهرة الإعراض عن التعليم الفني جلية وهو لايعرف حيثيات وأسباب هذا الإعراض، فحاول التبرير لهذه الظاهرة ووجد أن من المقبول عند بعض الناس القول بأنهم لايرتاحون للعمل اليدوي والجهد البدني: فأعلن اجتهاده في ظاهرة الانصراف عن هذا النوع من التعليم، وهو يكرس في رأيه هذا ميلا في طبيعة النفس البشرية إلى التبرير والخروج بعذر مقبول وأي تبرير أخطر من أي يوحى لناشئتنا.. وجيلنا الذي يعيش عصر التحدي أن الأعمال الصناعية المنتجة غير مغرية اجتماعيا وغير مرغوب فيها.

وقد يعزو ذلك لعادات وتقاليد مجتمعنا. . من يجهل تركيب المجتمع في ماضيه القريب والبعيد.

أما الرجل الثاني فهو ممن يعيش المعاناة بظاهرها ويحكم على الأمور بحاضرها دون عناء البحث والتقصي عن الأسباب ونتائجها وهذا النوع يرى أن الشيء المحسوس هو الإعراض عن التعليم الفني وعدم الاقبال عليه مثلما يقبل الطلاب على التعليم العام والعالي، فيقيم حكمه على النتائج وينسى المقدمات التي أدت بالضرورة إلى تلك النتائج فيضطر في مثل هذه الحال أن يوافق على الرأي الأول.

أما الشيء الذي نعرفه من تاريخ المجتمع في الجزيرة والخليج والذي نعرف من عاداته وتقاليده أنه لايحارب الصناعة اليدوية ولايقف منها موقف الرفض والازدراء كما يروج البعض وكما يحلو لهم. ومجتمع الجزيرة في جميع عصوره مجتمع عامل منتج لم يكن للوظيفة فيه نصيب كبير، وكان كل سكانه قائمين بأعمال يدوية وحرفية صرفة إلى عهد قريب وقريب جدا. كان أغلبهم فلاحين، ورعاة، وكان منهم العاملون في البحر وكان في كل قرية وفي كل مدينة فئة من أهلها يصنعون وينسجون وينجرون وينتجون ولانعلم أن العرب بعامة تعيب أحدا بصناعته، وعلى فرض أن هناك فئة تقلل من قيمة العمل اليدوي فليس ذلك التقليل الذي يصرف الناس عن العمل الصناعي والتكنولوجي. . لأن ذلك النوع من التقليل من قيمة بعض الأعمال كان مرتبطا بشكل خاص في بعض الحرف في الزمن الماضي ولامقارنة بين ما كانت تعرفه العرب وتنتقصه وبين ما هو قائم اليوم في عالم الصناعة وقد دخلناها من أوسع أبوابها، وكونا قواعدها الأساسية، وبدأنا الإنتاج المتنوع منها فالتعامل مع الآلة الحديثة عمل جديد على مفهوم المجتمع لايمت بصلة إلى ما كان معروفا من أعمال كانت سائدة في الماضي. والمحسوس في المجتمع اليوم وعاداته ومفهومه لوظيفة العمل أنه يعطي احتراما وتقديرا وإعجابا لمن يتعامل مع الآلة بقدرة وحذق وهو أمر يسقط الافتراض الخاطيء الذي يزعم أن المجتمع والعادات والتقاليد مسئولة عن عدم الاقبال على التعليم الفني. ويبقى أن نزعم أن عدم الاقبال كان بسبب

مادي بحت وبسبب نقص في منهج التعليم الذي بدأ به وخطأ في التصور الذي قامت عليه أساسياته، صرف الناس عنه وأبعدهم عن مجاله، وما ينسب للعادات والتقاليد يعتبر إسقاطا وتبريرا لايعتمد على حقيقة في واقع الأمر.

ومن لم يصدق فليعد بالذاكرة إلى الوراء قليلا وليتذكر ما كان يقوم به أهل قريته من أعمال قبل عشرين عاما وسيجد أن كل الأعمال التي يقوم بها المستقدمون وتقوم بها الآلة فى الوقت الحالي، كان يقوم بها أهل القرية أنفسهم دون معونة أحد ودون أن تقف عاداتهم وتقاليدهم ضدها ودون أن تتعطل الأعمال التي يزعم بعض الناس اليوم أن العادات والتقاليد الاجتماعية تقف حائلا دون استمرار الناس في ممارستها.

قصة التعليم العالي في المملكة[1]

التعليم العالي في البلاد قصة ولكنها قصة واقعة الأحداث ليس فيها شيء من خيال القصاص والشعراء، كتبتها الآمال العريضة للأمة التي أحست بالواقع وعرفت طموحات الآمال المتطلعة إلى إشراقة المستقبل وعلى الرغم من أن بداية التعليم في الجزيرة العربية كانت متأخرة إذا ما قورنت بالدول العربية الأخرى إلا أن المملكة كانت أسبق دول الجزيرة إلى بداية التعليم وتعميمه فيها.

ويعد التعليم أهم الانجازات التي تحققت للدولة خلال مدة زمنية قصيرة وقياسية إذا ماقورنت بما يحتاجه التعليم من وقت وجهد وتخطيط وتنظيم للعملية التعليمية الكاملة التي توفر فيها الهدف من التعليم، وقد تمت التجربة الأولى للتعليم بنجاح وعمت النهضة التعليمية أرجاء الوطن كلها، ونالت مراحل التعليم العام والجامعي والخاص شيئًا من الاهتمام، وإن كان هناك بعض أنواع من التعليم لم تستطع مجاراة الأنواع الأخرى في سيرها السريع إلى القمة والكمال وهي تحتاج إلى دفعات قوية إلى الأمام لأهميتها وضرورة التوسع الرأسي والأفقي فيها في وقتنا الحاضر خاصة وأعني بذلك التعليم التقني.

وإذا كان من الصعوبة في مقال عابر مثل هذا المقال الحديث عن كل أنواع التعليم في ماضيه وحاضره وما نرجو له من مستقبل، والحديث عما قد يطرأ من مشكلات وعقبات لابد منها فإني أرى اختيار نوع واحد وقطاع من التعليم محدد حتى لايتشعب بنا الحديث ولا يطول بنا استعراض مراحل التعليم الأخرى، ومتابعة مسيرته في طور التقدم والنمو الذي حققه منذ فترة ليست طويلة وليكن ما نتحدث عنه هو التعليم العالي أو الجامعي وهو أحد شبقي التعليم الذي حقق تقدما مرضيا خلال مدة قد لايتحقق مثل ذلك فيها لأي مرفق تنموي آخر.

(١) الجزيرة ١٤٠٦/٩/١٠ هـ - ١٩٨٦/٥/١٨ م - عدد ٤٩٨٠.

ولابد هنا من الاشارة إلى بداية التعليم العالي في المملكة وهو عام ١٣٧٧هـ وإذا كان هذا العام هو العام الذي أسست فيه أول جامعة في المملكة هي جامعة الملك سعود فإن من يؤرخ للتعليم العالي سيعود إلى الوراء بضع سنوات قبل هذا التاريخ، وسيبدأ من مكة المكرمة عام ١٣٦٩ هـ حيث أسست في هذا العام أول كلية جامعية هي كلية الشريعة وبعد خمس سنوات من هذا التاريخ ستقوم أول كلية للشريعة في مدينة الرياض عام ١٣٧٣هـ، وكانت الكلية الأولي في بدايتها تابعة للإدارة العامة للمعارف التي كانت تشرف على التعليم في ذلك الوقت إلى أن انشئت وزارة المعارف فأصبحت تابعة لها، ثم انضمت إلى جامعة الملك عبدالعزيز بعد انشائها، ثم انفصلت عنها في عام ١٤٠١هـ وأصبحت أول كلية في جامعة أم القرى أحدث الجامعات السبع نشأة.

أما كلية الشريعة الثانية التي تأسست في الرياض فقد كانت تابعة للإدارة العامة للكليات والمعاهد العلمية وكانت تدرس علوم اللغة العربية مع علوم الشريعة وقد أصبحت هذه الكلية نواة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي أنشئت عام ١٣٩٤هـ، وقد قدمت هاتان الكليتان خدمة كبيرة للمجتمع في بداية عصر التعليم وتخرج فيهما الكثير من رجال التربية والتعليم والقضاء الذين كان لهم فضل واسهامات جيدة في أول النهضة التعليمية الحديثة، ولهذا فإن عام ١٣٦٩ هـ هو العام الذي بدأ فيه التعليم العالي في المملكة، أما اعتبار عام ١٣٧٧ هـ بداية للتعليم العالي حقيقة، فلأنه العام الذي شهدت فيه المملكة مولد أول مؤسسة علمية أطلق عليها رسميا اسم الجامعة، وبدأت على أن تكون جامعة كاملة شاملة وخطط لها ورسم هيكلها ووضع تنظيمها الأكاديمي والاداري كاملا وأعطيت صفة الاستقلال المالي والاداري الذي تتمتع في مثله الجامعات في العالم.

وقد بدأت بكلية واحدة هي كلية الآداب والتحق فيها عشرون طالبا في عامها الدراسي الأول ١٣٧٧/١٣٧٨ هـ.

وهذا العام والأعوام القليلة التي سبقته هي التي شعرت المملكة أثناءها بدبيب دم الحياة الاقتصادية ينمو في شراييها بعد فترة طويلة من الركود

الاقتصادي الذي سببته سنون متلاحقة من الجفاف، وبعد سنين عجاف نتيجة للكساد الذي صحب الحرب العالمية الثانية وتلاها.

ولاشك أن الاهتمام المبكر بالتعليم الجامعي في ذلك الوقت كان يعكس الرغبة القوية لدى الدولة بالتعليم الجامعي والحرص عليه وأهميته بعد نجاح التعليم العام، ويدل على أن المسؤولين عن قطاع التعليم أدركوا ضرورة وضع النواة الأولى للتعليم العالي، حتى تتمكن الاعداد القليلة نسبيا التي تجتاز مراحل التعليم العام من الدراسة الجامعية في الداخل على الرغم من الظروف الصعبة التي كانت تجتازها البلاد وأخطرها الأمية المنتشرة في جميع الأرجاء الأمر الذي جعل الكثير من الأهالي يقف من التعليم المنظم موقف التمنع وعدم الاقبال مما جعل التشجيع ضروريا للقليلين الذين يقبلون عليه.

أما الدولة فكان هاجسها الأول هو التعليم والحرص على انتشاره في الاتجاهين الرأسي والأفقي لذا بادرت وأنشأت الجامعة الأولى، مع أن شعور عامة الناس عدم الأهمية بالتعليم إذ كانوا في ذلك الوقت لايدركون أهميته ولايعرفون قيمته بل لا يعرفون وظيفة الجامعة ولا دلالة مسماها يقول أحد طلاب الجامعة الذين التحقوا بها بعد عام من انشائها : إن السكان ما كانوا يعرفون الجامعة وما كانوا يفرقون بين جامعة الملك سعود أو جامعة الدول العربية أو الجامع ويذكر أنه بعد وصوله للرياض حاول البحث عن مكان الجامعة فلم يجد من يعرفها على الرغم من صغر مدينة الرياض حينذاك عن حجمها الكبير حاليا وقد بدأ مع زملائه بحملة مكثفة كما يقول للبحث عنها واستأجروا سيارة وطلبوا من السائق أن يأخذهم إلى الجامعة فنقلهم للجامع الكبير وعندما لم يجدوا الجامعة ولم يجدو حركة طلابية حول الجامع حاولوا إفهامه بأنهم يريدون الجامعة وليس الجامع فتشكك في نياتهم وظنهم يعبثون به وتركهم على قارعة الطريق وبعد ذلك وجدوا من يدلهم عليها وأنها كانت تسمى لدى الناس المدرسة الكبيرة.

أما طالب الجامعة التي تقام من أجله فما كان له مكانة معروفة ولا سن محددة في أذهان عامة الناس ولاحتى لدى بعض المتعلمين.

أما القلة فقد ادركوا أهمية الجامعة ووجودها وعلقوا عليها أمالا عريضة ووقفوا معها وقدموا لها كل مايستطيعون من مساعدة في رعاية الدولة وقد نجحت جهود هؤلاء بجلاء صورة التعليم واظهار أهميته وتغيرت النظرة إليه سريعا لدى الخاصة والعامة، وسار التعليم العالي منذ بدايته بخط مستقيم وتقدم كبير وخلال خمس وعشرين سنة انتشر وعم المدن والمناطق وقفز قفزات سريعة فاقت التصور وتجاوزت تقديرات المخططين لمسار التعليم العالي فتلت الجامعة الأولى جامعة وأخرى وأدرك الناس ما تعني كلمة الجامعة، بالنسبة للإنسان وللوطن والأمة وادركوا أهميتها في تنمية الحياة العامة للمجتمع وازدهاره وتقدمه الحضاري ونموه الفكري.

وقد اتحدت جهود الدولة ورغبة الناس واتجاههم إلى التعليم الجامعي، فكانت ثمرات ذلك الاتجاه ونتيجته التوسع المطرد في قاعدة التعليم الجامعي وقيام سبع جامعات في المملكة في فترة زمنية قصيرة بالنسبة لما يحتاج قيام هذه المؤسسات العلمية من إعداد واستعداد.

وتعتبر الفترة ما بين ١٣٨١ إلى ١٤٠١ هـ هي الفترة الذهبية لانشاء الجامعات ونشرها، حيث تخلل هذه الفترة قيام الجامعات الست التالية لجامعة الملك سعود وهو أمر يثلج الصدر ويبشر بخير، ويبعث الأمل قويا ويعلن عن مستقبل زاهر للأمة ويجعل أبناءها فخورين بالانجاز الذي حققوه لأمتهم وبلادهم ولثقافتهم وإذا أخذنا بعين الاعتبار أثر عدد من العوامل التي ستأتي فإن الكم الذي تحقق من التعليم يعتبر ظاهرة فريدة.

وأول تلك العوامل : عامل الزمن القصير جدا الذي تحقق فيه عدد كبير من الجامعات.

ثانيا : المستوى الجيد الذي وصلت إليه أغلب الجامعات في المملكة وهو مستوى يرضي تطلعات الشباب الذين يودون أن يروا ثمرات النجاح التي يحققها العمل الدؤوب في سبيل العلم.

ثالثا : الكثافة السكانية والتوزيع الجغرافي لمرتكزات السكان في بلاد واسعة المساحة مثل بلادنا التي تكاد أن تكون قارة بكاملها.

رابعا : نسبة المتعلمين الذين تتيح لهم الظروف الخاصة التي يعيشون تحت تأثيرها مواصلة الدراسة العليا.

وكل عامل من هذه العوامل له تأثيره على مسيرة التعليم قد نتعرض له فيما يمر من عرض لتطور التعليم. لكن من المعروف ومن المسلم به أن إنشاء جامعة وقيامها أمر يحتاج إلى الكثير من الجهود والتفكير، وليس من السهل ولا اليسير الإقدام عليه قبل الاستعداد الكافي له فضلا عن تأسيس سبع جامعات في زمن قصير، كانت فيه البلاد تحتاج إلى أساسيات البناء لكل مرفق من مرافقها وأساس هذه المرافق التعليم وقمته التعليم العالي الذي تحقق بالفعل.

التعليم.. والتقنية[1]

كل أمة نامية متطورة تحاول أن تختصر الزمن لصالحها، وتحاول أن تفعل اليوم ما لا تستطيع فعله في الغد ولا سيما إذا كان لديها امكانات كبيرة لتمويل خطط تنميتها، كدول الخليج العربية في الوقت الحاضر، وعندئذ يصبح لديها في كل مرفق من مرافق التنمية قضية قائمة لها ايجابياتها ومنافعها الظاهرة ولها عوائق وسلبيات لابد من محاولة تجاوزها بأكبر قدر من النجاح حتى لا تؤثر على أي مرفق من مرافق التنمية.

والتعليم عندنا قضية من أهم القضايا التنموية التي شهدتها المرحلة التي مررنا ونمر بها حاليا، لأن مرتكز التعليم وأساسه هو العنصر البشري، وهذه نقطة الخلاف بينه وبين أي نشاط تنموي آخر.

فالمرافق التنموية والخطط التي تعد للنهوض بمناحي الحياة العامة، يمكن أن يُعتمد في انجاز جزء كبير منها على الخبرة المحلية وغير المحلية ويمكن أن تُستقدم لها العمالة وتنشأ لها الشركات والمؤسسات ويمكن أن يستفاد في بنائها من خبرات الغير، ويمكن أن تعد وتعتبر عملا قائما منتجا يدار بعد ذلك بعدد قليل من أبناء الوطن.

أما التعليم فأمر مختلف لأن العنصر الأساسي فيه هو الإنسان، ثقافته وعاداته وتقاليده وفكره وفلسفته في الحياة، ومن المستحيل أن يكون المال وحده كفيلا بشيء من هذا، وإنما لابد من الإنسان الخبير المؤهل العارف بخصائص حياة المجتمع الذي يعيش فيه وينتسب له ولهذا السبب تكون تنمية التعليم في كل مراحلة عملية خاصة لا يُتكل فيها إلا على أبنائه الذين يعيشون مشاكله في الحاضر ويتطلعون لآماله في المستقبل.

---

(١) الجزيرة ١/٥/١٤٠٥هـ - ٢٢/١/١٩٨٥م - عدد ٤٤٩٩.

وما دام التعليم العام قد توفر لكل طالب أينما كان - وهذه حقيقة لا مراء فيها - والتعليم الجامعي قد توسع وأصبح هناك مكان لكل من يرغب في مواصلة تعليمه الجامعي في جامعات المملكة، فإن علينا في الوقت الحاضر الالتفات إلى الشق الثاني للتعليم وهو التعليم الفني، لأن للعملية التعلمية جانبين لابد منهما : العلم والعمل أو النظرية والتطبيق، ولا يستقيم جانب دون أن يوازيه الجانب الآخر، وإن حدث غير ذلك اختل التوازن، وقد حدث لدينا هذا الاختلال، والسبب في ذلك أن النظم التعليمية الحديثة في العالم العربي قد قامت على النقل من النظم الغربية، وكان التعليم في الغرب فيما مضى يقوم على الفصل بين نوعي التعليم، التعليم العام والتعليم الفني وكان هذا الفصل نتيجة لخلفيات اجتماعية وتاريخية عرفتها المجتمعات الغربية في عهدها السابق ولم تعرفها مجتمعاتنا الإسلامية والعربية.

وعندما نقل العرب من الغرب نظم التعليم نقلوا جانبا وتركوا جانبا آخر، أو بالأصح لم يستطيعوا نقل الجانب العملي الصعب، ثم انسحب النقل الناقص على جميع الدول العربية التي أخذت نظم تعليمها بدورها عمن سبقها من العرب.

ونحن في المملكة أخذنا النظم السائدة في البلاد العربية التي سبقتنا بالاتصال بالثقافة الغربية وسرنا على الطريق نفسها الذي ساروا عليه فوجدنا أننا في سبيل الاسراع إلى قمة التعليم قد تجاوزنا حلقات مهمة من مراحل التعليم، فأصبح لدينا نقص نسبي بين التعليم العام والجامعي وبين التعليم الفني مع أن مراحل التعليم الفني التي تجاوزناها هي ما نحتاجه بشكل متواز مع التعليم العام وهي أغلى لبنات الصرح الذي نبنيه لنهضتنا التعليمية والتي حققت ما حققته من خطوات متقدمة في حقولها الأساسية ومنها العلوم البحتة والتطبيقية.. والعالم كله في مراحل نموه الأولى يهتم بالتعليم الفني ويجعله أساسا يعتمد عليه مع التعليم الجامعي، وقد كان يذهب إلى التعليم الفني نسبة كبيرة من طلاب الغرب قد تصل في بعض الأحيان إلى ٨٠٪ وذلك تلبية للحاجة التي كانت قائمة حينذاك حيث كان التركيز على اليد العاملة الفنية المتخصصة وذلك

لتحريك عجلة التصنيع الذي كانت تعتمد عليه تلك الدول، ونحن نعيش عصر التصنيع، وقد حققنا أيضا في هذا المضمار مراحل طيبة عبر مجمعي الجبيل وينبع وهو ما يجعل من الأهمية بمكان - لنا خاصة - الاهتمام بالتقنية الفنية واليد العاملة المدربة تدريبا جيدا، وحبذا لو توسعنا في عدد الكليات المتخصصة في المجالات الفنية وجعلناها تكثف برامجها التخصصية الفنية حتى تكون قادرة على تأهيل الإنسان الذي يلتحق بها وسد حاجات المجتمع بما في ذلك التخصصات التي توجد في الجامعات لكن بزمن أقل ودرجات «شهادات» حسب الزمن الذي يقضيه الدارس ونوع التخصص الذي يختاره، حتى يستطع الإنسان عن طريق هذه الكليات التخصص المبكر لاتقان عمل ما والحصول على شهادة تناسب التأهيل والزمن اللذين يقضيهما إلى جانب المستويات الحالية من مراكز التدريب والمعاهد الفنية العليا وقد تحققت لها تجربة ناجحة كما أسهمت بالفعل في تكوين كوادر جيدة من الشباب في هذا المجال. فالتوسع في مثل هذا التعليم ليس الهدف منه الحصول على التخصصات الفنية فحسب وإنما من أهدافه استيعاب الفرد وتأهيله بما يناسب قدراته العقلية ويلبي ميوله ورغباته في نوع الحرفة التي يريدها الطالب.

كما أن احتواء التسرب الذي يحدث بين مرحلتي التعليم العام والجامعي هدف يتحقق عن طريق التعليم الفني، وانتشاره والتوسع فيه أمر لابد منه إذ لا يفترض أن كل من أنهى التعليم الثانوي مؤهل لمواصلة التعليم الجامعي، وليس كل من بلغ السادسة عشرة من العمر يستطيع الحصول على شهادة التعليم العام، والتعليم الفني وظيفته تأهيل هؤلاء وإعدادهم إعدادا فنيا.

لكن التعليم الفني في المملكة قد يحتاج إلى عامل الجذب القوي الذي يجعل الاقبال عليه جيدا، مع التوعية الضرورية قياسا على فهم الناس وادراكهم لأهميته إذ إن التعليم العام والتعليم الفني سارا متوازيين وقد تفوق الأول على الثاني.

فالتعليم العام كان يحقق لطلابه مزايا عديدة منها الوظيفة في الأجهزة الحكومية التي كانت تستوعب كل من يحصل على الشهادة الدراسية في أي

مرحلة من مراحل التعليم، ثم فرصة خريجي التعليم العام للمواصلة بالجامعات وفتح مجال التعليم العالي أمامهم أو ابتعاث المبرزين منهم إلى الخارج.. إلخ.

أما النوع الثاني من التعليم فهو التعليم الفني الذي كانت تمثله المدارس الصناعية المهنية ولم يقبل على هذا النوع من التعليم إلا العدد القليل من الطلاب، وقد كانت الفرص تختلف عن الفرص المتاحة في البداية للخريج الجامعي فأخذ الناس عنه صورة غير مشجعة ربما جعلت الاقبال عليه ضئيلا بالإضافة إلى مواجهة الدفعات الأولى من المتخرجين من التعليم الفني لمشكلة وجود العمل المناسب - وهي تختلف الآن على كل حال - وكذلك وجود قنوات متعددة للتعليم غير الفني يستطيع الطالب أن يلتحق فيها ويحصل في نهاية المطاف على شهادة علمية تؤهله للالتحاق بالعمل الوظيفي ومواصلة دراسته الجامعية ومن ثم العليا.

إن الشهادة التي يحملها المتخصصون في التعليم الفني قد تعد النهاية لمشوار التعليم كما قد لا يستطيع حاملوها السير في مدارج التعليم الجامعي أو العالي وهذا الأمر جعل بعض الناس يحجمون عن التعليم الفني لأن الأمل في مواصلة التعليم على نظام الدبلومات المهنية دافع قوي في حياة الانسان.

وهذا عامل مهم يجب استدراكه حتى نجذب أعدادا كبيرة إلى مسيرة التعليم الفني ونفتح الطريق أمامهم للمزيد من التأهيل الرأسي، والاتجاه السائد اليوم في العالم هو الاتجاه إلى التعليم المستمر والتدريب الدائم حتى ترتفع القدرات والخبرات وتنمو باستمرار.

وتعدد جهات الاشراف على التعليم الفني كان سببا آخر من أسباب ضعفه حيث كان مقسما بين وزارتي المعارف والعمل والشؤون الاجتماعية وهذا الفصل بين جهتي الاشراف ربما أثر في ديناميكية خطط التطور في الماضي وقد كان للفصل بينهما ما يبرره إبان وضعه لكنه في رأيي - يجب أن يوحد بعد قيام المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني، لأن توحيد جهة الاشراف أمر في

غاية الأهمية للمرفق التعليمي، فالتعليم الفني يعتمد على شقي العملية التعليمية النظرية والتطبيقية ومجرد الفصل بينهما حتى ولو في الذهن له تأثيره.

ولكن مع التواجد الصناعي الكبير بالمملكة وقيام المؤسسة العام للتعليم الفني حظي هذا الجانب بالاهتمام المكثف.

وسوف أتناول حاضر التعليم الفني وحاجتنا له في المستقبل في مقالة قادمة أعالج فيها بعض التصورات والآراء الايجابية إن شاء الله.

قصة التعليم الجامعي في المملكة[1]

كما تقدم في مقال سابق من أن قيام التعليم الجامعي عملية ضخمة تحتاج إلى توفر أكثر من عنصر لنجاحها حتى يكتمل للتعليم الجامعي معناه ويتحقق الغرض منه ثم يصبح قادرا على تأهيل الإنسان للدورالذي سيقوم به لخدمة المجتمع والأمة بعد تخرجه من الجامعة، فأهون العناصر التي يحتاجها التوسع في التعليم الجامعي هو العنصر المادي وتوفر الامكانيات المادية، هو الأساس الذي توفر لدينا وعليه قام التوسع في التعليم الجامعي إذ كان الاعتماد قائما في أول الأمر على ما وهب الله هذه البلاد من خيرات وقدرات مالية كبيرة، رأت الدولة توضيفها لصالح الإنسان ولصالح تنمية قدراته حتى يكون منتجا لا مستهلكا وعاملا بما يتوفر له من علم ومعرفة.

وجاء في أولويات التوظيف للثروة التعليم بشقيه العام والجامعي وقد ساعدت القدرة المالية واخلاص النية والعزيمة بدون شك على تذليل الكثير من العقبات التي قد تعترض مسيرة التعليم، وقد تمكنت الدولة من نشر التعليم أفقيا مع نشره رأسيا وانخفضت نسبة الأمية بزمن قصير وضمن مكان لكل طفل في سن الدراسة، ففتحت المدارس ومعاهد المعلمين الأولية حتى يتأهل عدد كاف من المدرسين في الداخل واستقدم عدد آخر من الخارج ليسد النقص الذي يحصل في عدد مدرسي مراحل التعليم العام.

أما الأمر بالنسبة للتعليم الجامعي والجامعات فيختلف كل الاختلاف من حيث الغاية التي تناط به ومن حيث الوسيلة التي تتحقق من خلالها أهداف الإنسان ومراميه وطموحاته من التعليم الجامعي، فهو لا يتطلب السرعة التي يحتاجها التعليم العام ولا يلبي الرغبة في سرعة الانتشار ولكنه إذا أريد أن يكون

(١) الجزيرة ١٤٠٦/١٠/٦ هـ - ١٩٨٦/٦/١٢ م - عدد ٥٠٠٥

له ثمرة منتجة فلابد من التأهيل الجيد والسير المتأني. والقدرة المالية بالنسبة لقيام الجامعة لا تأتي أولا إنما تأتي القدرات المؤهلة تأهيلا عاليا قبل كل شيء.

والعنصر البشري هو ركيزة التعليم الجامعي ولكن وجوده وتأهيله لا يتحقق في زمن قصير، وامتداد الزمن بالنسبة للتعليم الجامعي أمر في غاية الأهمية، وهذا هو وجه الخلاف بينه وبين التعليم العام الذي لابد من سرعة نشره ولابد من أن يجبر عليه كل طفل في سن التعليم حتى يعرف القراءة والكتابة ويلم ببعض ما يجب عليه معرفته بالضرورة ويرتفع عن مستوى الأمية قبل أن تبتعد به مجالات الحياة الواسعة عن التعليم الأولي فيتقدم به السن ولا يجد وقتا مع حركة الحياة لمزيد من التعلم والتحصيل والثقافة.

وإلى هذا المعنى يذهب بعض مفسري ديمقراطية التعليم بينما تذهب آراء أخرى إلى ضرورة إتاحة الفرصة المناسبة للاستمرار في التعليم في اطار التربية المستديمة وعلى مدى الحياة وأيا كان الأمر فإن المسؤولين عن نظرية التعليم يرون أن تسهيل التعليم العام لكل فرد في المجتمع واجب على الدولة تحققه لكل أفرادها مهما كلفها ذلك من مال وجهد.

أما أهداف التعليم الجامعي والنظرة إليه فتختلف عن أهداف التعليم العام وهو في أساس الأمر يقوم على فلسفة بناء شخصية الإنسان القادر المستجيب لعملية التعليم وتطوير جوانب الابداع في هذه الشخصية لتكون منتجة قادرة على الاستمرار بالبحث والعطاء المتجدد مع الحياة، وليس كل فرد يجتاز التعليم العام يصبح صالحا للسير في طريق التعليم الجامعي أو العالي حتى لو أتيحت الفرص لقبول كل من يحصل على الثانوية العامة في الجامعات.

والجامعات الغربية آخذة بمبدأ الفرص للجميع، إلا أن هناك فرقا بين إتاحة الفرصة للالتحاق في الجامعة وبين النجاح فيها ولا يعني ذلك أن من دخل الجامعة لابد أن يستمر فيها على أساس القاعدة التي تقول: إن اتاحة الفرص المتساوية في الالتحاق Equality of Access لا تعني بأي حال اتاحة الفرصة المتكافئة للنجاح Equlity of Success إذ إن التعليم الجامعي تأهيل يحتاج إلى

قدرات متميزة، والتوسع فيه مطلوب في كل الأحوال والاتجاه في العالم في الوقت الحاضر يميل إلى تعميمه وشموليته لكن عندما يهيأ له الجهاز القوي القادر الذي يضمن الهدف منه، وعندما يتوفر العدد الكافي من أعضاء هيئة التدريس وبنسبة ثابتة لكل عدد يقبل في الجامعة من الطلاب.

وجامعة الأعداد الكبيرة أصبحت ظاهرة تشكل عقبة أمام عملية التأهل الجيد وقد أدرك ذلك كبار الأكاديميين العرب وعرفوا خطورته على وقت الأستاذ الجامعي وتحصيل الطالب.

يقول الدكتور يوسف خليف: (إن جامعة الأعداد الكبيرة تأكل وقت الأستاذ كله ولا تترك له الفرصة لتحقيق الصورة المثالية التي يفترض ألا تقوم الجامعة بدونها وأيضا ظهور الجامعات في جميع الدول بالصورة التي ظهرت بها دون أن تتكامل مقومات الحياة الجامعية الأصلية أضاف مسؤولية جديدة على الحياة الجامعية لم تستطع حتى الآن تحملها أو النهوض بها لأن هذه الجامعات تبدو مجموعة منها وكأنها معاهد لتخريج الموظفين، والعبرة ليست بكثرة الجامعات ولا بكثرة الطلاب الجامعيين، إنما العبرة بالجامعة التي تدرك معنى رسالتها الجامعية وبالطالب الذي يصلح لحمل هذه الرسالة الجامعية) انتهى كلامه، وقد أدرك مثل هذه الحقيقة وكيل وزارة التعليم العالي الدكتور محمود سفر وقال: (إن الجامعات تخرج كتبة وإن بعض جامعاتنا العربية تخرج كما بدون كيف لأن مرحلة التنمية التي نعيشها كانت تحتاج ومازالت إلى هذا الكم من الخريجين ومن ثم لابد أن يعاد النظر في المرحلة المقبلة بصورة جذرية ويعاد النظر في مناهج وخطط التعليم العالي في المملكة)، وحديثه يؤخذ على أنه تجربة عملية عايشها أثناء عمله وليس تصورا بعيدا عن الواقع، كما أدركت دراسة نشرت عن التعليم العالي في المملكة في العام الماضي الاهتمام الكبير في الكم دون الكيف الذى بدأ يظهر في الجامعات وقالت تلك الدراسة أن جميع المؤشرات تدل على أن اتجاهنا الكمي في التعليم العالي سليم ولله الحمد، لكن لابد من وقفة عند الكيف.

أما مدير إحدى الجامعات فله رأي في التعليم الجامعي لدينا لا يبعد عن

الآراء السابقة ولكنه يبرر ذلك بالظروف التي كانت تمر بها البلاد أثناء الأعوام الماضية وما كانت تحتاجه تلك الأعوام من سرعة في انجاز الكثير من المشاريع البناءة بما في ذلك التعليم الجامعي ويرى أن الوقت لم يكن مسعفا لنوع من التريث الذي يناسب أهمية الجامعات وما يؤمل من عمل تنمو عليه حضارة مستقرة.

ومعنى هذا أن الظروف المؤاتية شبه الطارئة التي مرت بها البلاد واستغلتها لدفع خطط تنميتها الطموحة كانت سببا في تسهيل استكمال بعض الجوانب التي من الممكن استكمالها بعد أن تؤدي خطط التنمية دورها، وهذا هو الصواب، وقد جاء الوقت المناسب لاستدراك ما فات مع سرعة الانجاز ولا بأس أن نبدأ منذ الآن بتأصيل المنهج الجامعي واستكمال جوانب النقص حتى تكون مؤسساتنا التعليمية قريبة من الكمال الذي نرجوه لكل مؤسسات بلادنا.

ولعل الوقت الذي أجلنا إليه استكمال الجوانب غير الممكن استكمالها فيما مضى قد بدأ في هذا الوقت. وقد استعرضنا عددا من الآراء فيما سبق وكلها تلح بوجوب إعلأادة النظر في سياستنا التعليمية والمنهج الذي تسير عليه الجامعات كما يجب في هذه المرحلة إعادة التخطيط حتى يوافق ويلائم المرحلة القادمة، التى ستكون حاجتنا فيها مختلفة كل الاختلاف عن حاجتنا في السنوات العشرين الماضية التي تأسست فيها بنية التعليم الجامعي ورسمت في ضوئها خطط التعليم.

ومشكلة التوسع قبل الاستعداد له ليست مشكلة تواجهنا نحن خاصة إنما هي مشكلة تواجه العالم كله وخاصة العالم العربي. . يقول أحد كبار التربويين العرب : إننا نفتح مجال عمل ضخم جدا ونواجهه بطاقة محدودة ونتيجة ذلك حدوث قدر من العجز، فإذا أدركنا أن نتوسع وهذا لا ينازع أحد فيه فلابد أن يكون كل شيء معدا إعدادا كافيا لمواجهة هذا التوسع وهذه مسائل تحسب بسهولة، والدولة إذا أرادت قبول عدد من الطلاب في كليات مختلفة كل كلية لها

نوعية وكل مجموعة من الطلاب يحتاجون إلى أستاذ لا يزيد عدد الطلاب لديه فإذا زادوا دخلنا في الخلل.

هذا الرأي عرف مشكلة التوسع السريع وهو ينطبق على كثير من جامعات العالم العربي وقد بدأت بوادره تظهر في بعض جامعاتنا وإن لم نشعر بقوته حتى هذا الوقت.

بالنسبة للتوسع في قاعدة التعليم الجامعي إلى جانب القدرة المالية استطاعت جامعاتنا أن تستقدم الكفاءة البشرية المؤهلة، وسارت في طريق النجاح، كما نجت جامعاتنا من عوامل التعثر التي قد تصاحب بداية التجربة الجديدة وتغلبت على نقص الكفاءة وندرة التخصص. وحققت بعض الجامعات سمعة علمية جيدة واحتلت مكانة بين الجامعات وعرفت خارج الحدود، وكثير من خريجي جامعاتنا اعترفت بقدرتهم العلمية الجامعات العالمية العريقة وحققوا نجاحا وندية مع زملائهم خريجي الجامعات العالمية وفي تخصصات مهمة كالطب والعلوم التجريبية الأخرى، ومستوى بعضهم مرض، والمستوى الذي يتمتع به خريجو الجامعات هو الأساس الذي يبنى عليه تقويمها وتذيع به شهرتها.

أما الجامعات فلا يتقرر مستواها خلال عدد من السنين ولا يتميز بعشرات الخريجين الذين يسود فيهم عنصر الكفاية العلمية والابتكار، وجامعة كجامعة السربون واكسفورد وكمبرج مضت على قيامها مئات السنين قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه من سمعة عالمية جيدة.

وجامعاتنا على الرغم من قصر عهدها إلا أن أغلبها حقق الرضا والاحترام مع أنها في دور التكوين لكن النجاح الأولي الذي نعترف به ونفخر به أيضا لا يجب أن يصرف الانتباه عما يصاحب النجاح والبداية المشرقة من سلبيات يفترض حدوثها في كل عمل كبير وانجاز وطني طموح.

وغرض هذا المقال معالجة بعض المؤشرات التي بدأت تظهر أعراضها بعد أن اجتازت الجامعات السعودية مرحلة التأسيس، وبدأت تظهر ملامح كل جامعة ككيان علمي متميز، ويتحدد مسارها في الاتجاه الذي اختارته والذي نرجو أن

يخدم مصالح الأمة وتاريخها وماضيها، وينشر ثقافة العرب والإسلام ويعود بالنفع الجزيل على الوطن وأبنائه.

ولعل ما سوف نتحدث عنه ونستعرضه في مقالنا هذا مما قد يظنه بعض القراء نقدا للدراسات الجامعية ما هو إلا ظواهر ومؤشرات وأمر محتمل الحدوث ومتوقع نريد أن ننبه إليها في سطور موجزة ما دامت احتمالا قبل أن تصبح واقعا لا سمح الله آخذين في حسباننا العناصر التالية:

(أ) تكرار بعض التخصصات نتيجة الاقبال غير المرشد وغير الموجه من قبل الجامعات والمتخصصين بجهات التعليم.

(ب) إنشاء تخصصات هامشية قد لا تكون الحاجة داعية إليها في الوقت الحاضر وقد لا تكون صالحة للمرحلة التي تعيشها البلاد اليوم.

(جـ) قبول نسبة كبيرة من الطلاب في تخصصات وأقسام قد لا يعود التخصص فيها بالفائدة المطلوبة لمرحلة تنموية معينة.

(د) تجاوز بعض مراحل التعليم المهمة التي تربط التعليم العام بالجامعي وتكون حلقة وصل وقفزها دون الشعور بالحاجة إليها.

هذه الاحتمالات وغيرها إذا لم يكن قد حدث شيء منها فعلا فمن الجائز حدوثها في المستقبل وسنناقش بعضها فيما يأتي من حلقات..

الفصل الخامس

في سبيل لغة القرآن

اللغة العربية تعرض حالها بعد ندوة الأدب الشعبي في الدوحة[1]

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني.. ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.. من أن تنزل بي غضبك.. أو يحل عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ولاحول ولا قوة إلا بالله.

إلهي لقد حاربني أعداء أهلي وأعداء قومي، وقد صمدت وقاومت ورددت العدوان وأثبت للناس كافة أنني الأقوى والأصلح بعد أن تكسرت السهام على السهام.. سهام أعدائي من المستعمرين والمستشرقين ومن لف لفهم.. حاربني الاستعمار في كثير من الأقطار العربية.. ودقوا على وتر العاميات وكتبوا بها وترجموا إليها أجمل الفنون الغربية، ليصدوا الناس عني فتصديت لهم وقارعت الحجة بالحجة وألحقت هزيمة ساحقة بالدكتور الألماني الانجليزي سبيتا ودعوته الشهيرة بكتابة (قواعد العامية العربية في مصر)، وقد استعمل سلطانه ضدي وسلطان بريطانيا العظمى في ذلك الوقت.. فأرادوا القضاء عليّ.. وكل عدو غريب للعرب كافة يحاربني، فأنا ركيزة القوة العربية وأنا اللسان الذي يفهم به كل العرب أمجاد آبائهم وأجدادهم ويدركون عظمة موروثهم الحضاري، فلا ينخدعون بحضارة الغرب والشرق..

لقد أحبطت مخططات سبيتا وأعوانه وما كان هو ولاكتابه ولاوظيفته التي

---

(١) الجزيرة ١٤٠٥/٣/٤هـ - ١٩٨٤/١١/٢٦م - عدد ٤٤٤٢

وضعه الأعداء فيها لينال مني نيلا ولا كان زميله ومواطنه كارل فولدس الذي أعقبه في وظيفته ونفذ أهدافه أقل خطرا منه بل كان أكثر حماسة لدعوة أستاذه وقد ألف كتابا آخر ضدي سماه (اللهجة العربية الحديثة في مصر) ودعا إليها وزعم أن العامية التي يدعو إليها ستكون القاضية عليَّ وقد فشل أيضا. . وانضم إليهما ثالث : وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لاتصبحينا وهو سلدون ولمور كان قاضيا في مصر فأراد الضرار بي فكتب كتابه (العربية المحلية في مصر) وغير هؤلاء من أبناء دينهم كثير، دفعوا المكافآت الكبيرة لمن يهجرني ويكتب في العامية فلم ينجحوا وقد انضم إلى هذا الفريق الأجنبي فريق من أبنائى وممن تربى في حجري أخذوا عنهم منهم قاسم أمين وسلامة موسى ولطفي السيد وعبدالعزيز فهمي وغيرهم فعفوت عنهم والتمست لكل منهم عذرا. .

فقاسم أمين جلب أباه وأضر به من ينتسب إلي فأكرمته واحتضنته ابنًا من أبنائي لكنه يعرف أن أباه ذئب، أما سلامة موسى فبلواه أبدية معي وقد حارب كل الأديان من أجل أن يصيبني منه شهاب فإذا كتب كتب يهدم الأديان والمثل، وما يعني بذلك. . إلا مايعني المثل العربي (إياك أعني واسمعي يا جارة) وقد احتملت لقاسم أمين ولسلامة موسى ذلك وجعلته دبر أذني وتحت قدمي. . أما أبنائي الخلص فلم أضق ذرعا بعقوقهم، وحمدت فضيلة الانجاب وكثرة الولد، وذكرت أن لي أبناء في العراق والشام والمغرب الأقصى وأن لي عندهم برا ورحمة وقبولا وميزت بين العداوة والعقوق، فأحمد لطفى السيد يريدها مصرية إقليمية ويراني أمًّا لكل العرب وهو لايريد إلا مصر ولايبالي بغيرها. . أما عبدالعزيز فهمي فهو الباشا وهو بحربه وعداوته يرد بعض الجميل للذين أعطوه المكانة، ولقد آلمني حقا عندما خطب في مجمع اللغة العربية فعظم أعدائي كل التعظيم واستهان بأبنائي كل الاستهانة وهون وضعَّف قدر العرب وقال بالحرف الواحد (لاشك أن حضرات المستشرقين، من بريطانيين وفرنسيين وايطاليين وألمان وامريكيين، يعجبون منا نحن الضعاف الذين يطأطئون كواهلهم، أمام تمثال اللغة. . لحمل أوزار ألف وخمسمائة سنة مضت). لقد قسا علي وظلمني. . .

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

لقد شعرت بالظلم عندما سمعته يقول ذلك لكن بعض أبنائي الذين دافعوا عني وفندوا آراءه.. خففوا وقع الألم عن نفسي.. وذكرني بعضهم بأبنائي في الجزيرة عندما قال:

سقى الله في أرض الجزيرة أعظما يعز عليها أن تلين قناتي

لقد كنت أظن أنني إذا هوجمت على الثغور وفي الأطراف فلازلت منتصرة لأن أبنائي في الجزيرة هم الحصن الحصين وهم القلب النابض وهم الذين لم تطأ أرضهم قدم مستعمر وقد شجعني أنني انتصرت في مصر وفي الشام ولاأحتاج إلى التراجع ولم يخطر ببالي عملية الالتفاف على الحوزة.

لكنني شعرت منذ فترة أن في الجزيرة من يدرس ويعنى بهذا الجانب باسم الأدب الشعبي والشعر الشعبي والموروث الشعبي وقد احتملت ذلك على الرغم من أنه يؤلمني ويحط من مكانتي ويصد الناس عني «لأنني ظننت الأمر عفو الخاطر ومغازلة للعامية لن تصل إلى الهيام والحب الأبدي»...

على الرغم من أنهم وصفوه بأن فيه تراثا وجذورا تاريخية وأن فيه ماضيا عمره سبعة قرون.. فقلت لابأس صحبتي معهم أطول وكلها أقوى من هذه القرون السبعة وتمنيت لو قارن أبنائي في الجزيرة هذه القرون السبعة بألف وخمسمائة عام لأنهم سيجدون أنهم في هذه القرون السبعة كانوا مدينة تهاجم مدينة وقرية تصول على قرية وقبيلة تنتهب قبيلة لا أمن ولااستقرار ولاقوة ولافكر.. وما يفخرون به هو نتاج ضعيف فكريا واجتماعيا وأدبيا.. أما في القرون الأخرى فقد كانوا أمة لاقبيلة وكانوا دولة لامدينة وكانوا حضارة.. فلماذا يهيمون بالمفضول مع وجود الأفضل...؟.

ولو أن هذه الجفوة التي أراها قد بدأت في الجزيرة، صدرت عن قناعة ذاتية نابعة من نفوس أبنائي وصلوا إليها بعد الفحص والتمحيص لهان علي الأمر.. لكنني أعرف أن الأمر Ready made صنعه أعداء العربية قبل سبعين عاما ووضعوا له الأطر والقواعد وعجزوا عن تطبيقه لبعدهم عن فهم البديل.

فجاء أبنائي يطبقونه ويزيدون عليه ما لم يخطر ببال الأعداء.. يقول عدو

اللغة العربية ولمور (خير الوسائل لتدعيم اللغة القومية «العامية» هي أن تتخذ الصحف الخطوة الأولى في هذا السبيل) وقد أخذت الصحف في الجزيرة بهذه التوصية منذ عشرين عاما فلم ترضي محبي العامية.. فجاءت ندوة الدوحة ندوة التخطيط لجمع وتصنيف ودراسة الأدب الشعبي في الدوحة بما لم يخطر ببال ولمور..

ومن توصيات الندوة:

١ - ضرورة الاستفادة من التجارب الرائدة.

٢ - تحديد مفهوم الأدب الشعبي.

٣ - ضرورة التواصل بين الباحثين في الدراسات الشعبية.

٤ - الاستفادة من جهود العرب في مجال التدوين والتوثيق.

٥ - على كل دولة عربية أن تقوم في مهمة خاصة.

٦ - جمع مادة الأدب الشعبي من جميع مكتبات العالم.

٧ - دعوة الجامعات ومراكز البحث العلمي إلى الاهتمام بالدراسات والأبحاث في مجال الأدب الشعبي.

٨ - تجنيد الجامعين الميدانيين له..

٩ - حفظ المأثورات الشعبية في الأدب الشعبي..

١٠ - إعداد الباحث الشعبي إعدادا علميا وفنيا.

١١ عداد فرق عمل ميدانية كاملة مجهزة يشتمل كل فريق على جميع المتخصصين من جامعين وباحثين ومصورين ومهندسي صوت..

١٢ - الاستعانة بوسائل الإعلام..

١٣ - تحديد أنماط الأدب الشعبي وأجناسه..

١٤ - تشكيل لجنة من المختصين لدراسة صيغة علمية لكتابة اللغة المحلية لتدوين أنماط الأدب الشعبي.

١٥ - تكريم الرواد الذين ساهموا بجهود طيبة في مجال جمع وتدوين وتصنيف ودراسة أنماط الأدب الشعبي..

إن هذه التوصيات لو توفرت لأي لغة في الدنيا لما أصبح في العالم غيرها..

لقد وأدوني في ندوتهم هذه، شعروا بذلك أم لم يشعروا فهل من صعصعة يدفع عني دية الموءودة. . ثم أسألكم ما علاقة جامعة جنيف في هذه الندوة وما علاقتها بتراثكم الشعبي. . ؟ هل لها دور لا أعرفه. . ؟ أجيبوني رحمكم الله. .

لايجب أن يكون للعامية ما للفصحى[1]

تفضل الزميل الدكتور[2] في كلمته المنشورة برسالة الجامعة العدد ٢٦٢ في ١٤٠٥/٢/٢٤هـ فعقب على ما تعرضت له في محاضرتي الموسومة كما يقول «بظاهرة انتشار الشعر العامي في الجزيرة» وقد تضمن تعقيبه الكثير من الملاحظات والآراء التي ودّ مخلصا أنني تعرضت لها والآراء الأخرى التي تمنى أنني أجتنبتها، واقترح أشياء خطر بعضها على بالي ولم يخطر البعض الآخر لي على بال، ولو انصب كل كلامه على الأفكار التى جاءت في المحاضرة وفنّدها أوعارضها معارضة صريحة لما كتبت حرفا واحدا، لسبب بسيط جدا وهو أن أول كلمة قلتها في تلك المحاضرة هي أنني لاأطمع بالاجماع على أي رأي من الآراء ولاأدعي الكمال من النقص الذي يجده من يبحث عنه.

وقد طرح أسئلة واستفهم عن أشياء يريد مني الجواب عليها لأنه كما ذكر كان في الوادي الذي لم أكن أنا ومن معي فيه، ولو كانت كلمتي مكتوبة في جريدة لأحلته عليها وأحلت القراء الذين قرأوا ردّه ولم يسمعوا الحديث الذي دار بيني وبينه.

ولكن المحاضرة كانت غير مكتوبة إلا مانقلت من بعض المراجع التي أشار الدكتور إلى اثنين منها وهي أكثر من ذلك بكثير لهذا السبب وجدت من حقه علي ومن حق القراء الذين قرأوا كلمته فى (الرسالة)التوضيح حتى يطلعوا على رأيي موثقا وموقعا عليه ويكون في يده الدليل المادي على ما أقول وسأعمد إلى ما يفيد

---

(١) رسالة الجامعة ١٤٠٥/٣/٩هـ - ١٩٨٤/١٢/١م - عدد ٢٦٤.

(٢) الدكتور هو أحد الزملاء في كلية الآداب، وقد أصبح بيني وبينه من الصداقة والإلفة ما هو أقوى من كل اعتبار وأثناء تحريري لهذه المقالات وإعدادها للنشر كان خارج المملكة في شبه إقامة دائمة فلم أستطع الاتصال به لاستئذانه بذكر اسمه أو عدم ذلك.

بنقاط مركزه. أما ماتفضل به من تعريض وما يجب وما لايجب فلن أحتاج للرد عليه.

(أ) يقول : إنه فشل في إدراك الربط بين الدعوة للعامية في مصر والشام ومايجري في الجزيرة.

وأقـول :

إن الرابط بينهما هو أن الدعوة للعامية في الشام ومصر كانت صريحة معلنة تصدرها رجال وقالوا كل مايستطيعون في سبيل نجاحها، ولم يفعلوا شيئا وجاء رجال في الجزيرة يطبقون عمليا وبصمت ما دعا إليه الداعون في مصر والشام متذرعين بالحفاظ على الأدب الشعبي والتراث الشعبي والشعر الشعبي، ففي مصر قالوا الكثير ولم يفعلوا إلا القليل، وفي الجزيرة فعلوا ويفعلون كل ما يمكن في سبيل العامية ولايقولون شيئا البتة، هذا هو الرابط وهو وجه من وجوه الاتفاق على الغاية والاختلاف على الوسيلة.

ويقول الدكتور : إنه لايعلم سببا لاقحام عبدالعزيز فهمي ولم يدر أنه دعا إلى العامية.

إليك السبب نصا من لسانه وقلمه يقول عبدالعزيز فهمي : «لم يدر بخلد أي سلطة في أي بلد من تلك البلاد المنفصلة سياسيا أن يجعل من لهجة أهله لغة قائمة بذاتها».

وأسوق سببا آخر يقول : «إن أهل اللغة العربية مستكرهون على أن تكون العربية الفصحى هي لغة الكتابة عند الجميع».

فهل علمت سببا الآن لإقحامه؟ إن لم تعلم بعد فإليك سببا لامزيد عليه، يقول بعد أن أثنى ثناء عطرًا على الانجليز الذين يحتلون مصر في ذلك الوقت وعلى الأمريكان والغربيين كافة وعدد دولهم وجنسياتهم يقول : «إنهم يعجبون منا نحن الضعاف الذين يطأطئون كواهلهم أما تمثال اللغة، لحمل أوزار ألف وخمسمائة سنة مضت». وفي هذه الألف والخمسمائة سنة كتاب الله وسنة نبيه وتاريخ الخلفاء الراشدين وأمجاد بني أمية وحضارة الدولة العربية الاسلامية في

عهد بني العباس وكلها في رأيه أوزار يحملها على كتفه فهل علمت الآن سببا لاقحامه ؟ ! ! .

(ب) يقول الدكتور : إن العامية واقع موجود وعلينا أن نسلم به وإلا فكيف نعلل اشتغال أدبائنا وعلمائنا فيه بل إن الأمر يصل إلى تقعيده واستنباط بحوره.

وأنا أشهد على أن العامية واقع ولكن للعامية في كل لغة من اللغات ذات الموروث الحضاري حيزا تحتله فوجودها كواقع في كل لغة لايجعلها تنتقل من حيزها الضيق الذي خصص لها بل نتعامل معها في واقعها وفي حيزها وفي حدود ما تعارف الناس عليه.وحيزها وواقعها هو أن تكون للكلام الدارج على ألسن عامة الناس، أما إذا كتبناها وأعطيناها اسما آخر وأضفينا عليها لغة أدب وشعر فتكون في هذه الحال لغة كتابة وأدب وشعر وتنتقل من حيز العامية إلى محيط اللغة القومية أوالقطرية وتصبح فصحى لأهلها يتجدد منها عاميات، وهذا هو مايسعى إليه دعاة العامية. ونحاول نحن أن نقول رأينا في خطورة هذا التطور على موروثنا الثقافي الضخم ودیننا ووحدتنا الكبرى، أما التسليم والتعليل لاشتغال الأدباء بها والتقعيد واستنباط البحور كما ذكرت فأنت قد سلمت بأهمية العامية وهذا وجه الخلاف بيني وبينك ومن حق القراء أن يعرفوا أنك صاحب موقف مؤيد لجمع العامية وها أنت تقوم ببحث ضخم تجمع فيه عامية مدينة من مدننا ولهجاتها وكان من الأمانة العلمية والمناقشة الموضوعية أن تُعرِّف الناس بموقفك وآرائك حتى لايظنوا أنك محايد بينما أنت صاحب موقف بجانب العامية وكل من يعارض هذا الموقف فستكون على خلاف معه وهذا حق من حقوقك ومن حقك أن تناقش الأمر مناقشة صاحب الموقف المعارض.

أما الأدباء الذين أشرت إليهم فنحملهم على كل محمل حسن، وعندي فرق بيّن بين دراسة العامية وشعرها كظاهرة بأسلوب عربي ناصع البيان وبين تقعيدها كما ذكرت وتقنينها، فهذا شيء وذلك شيء آخر، ونزيد الأمر وضوحًا ونقول : إن الحق لايعرف بالرجال، فأحمد لطفي السيد وعبدالعزيز فهمي كانا أعظم رجلين في الأدب وفي السياسة وفي المركز الاجتماعي في مصر إبان الدعوة إلى العامية وقد انضما إليها.

أما كيف ندرسه أكاديميا «علميا»؟.

فأنا مع من يرى دراسة الذي قيل قبل خمسين عاما وحفظه وتكليف الأساتذة الجامعيين المتخصصين في التراث بدراسته كظاهرة لغوية لالنشره وتقعيده وإحيائه كما يحدث في الصحافة والنشر الآن.

(جـ) يقول : لنا أن نهتم بدرسه والبحث فيه لا لإعتماده لغة كتابة ولا إحلاله محل الفصحى ولا أظن عاقلا يقدم على ذلك اليوم.

هذا كان ظني أيضا أنه لن ينادي أحد بكتابته اليوم لكن بعد عشر سنوات سيكون من الضرورة كتابته واحلاله محل الفصحى وهذا ما أشرتُ إليه في حديثي، لكن أهل ندوة الدوحة للتخطيط للأدب الشعبي خيبوا الظن وسبقوا الزمن المحدد وأعلنوا في ندوتهم أنه يجب أن يكتب ويقعد اليوم وإليك وإلى القراء فقرة واحدة من عشرين فقرة أوصت بها الندوة وهذه أهونها : أوصت الندوة بتشكيل لجنة من المختصين لدراسة صيغة علمية لكتابة اللغة المحلية المحكية لتدوين أنماط الأدب الشعبي.

هل تريد وهل يريد الناس بعد هذه التوصيات ولاسيما هذه الفقرة مزيدا من الأدلة؟ التي لاتترك مجالا للشك بأن الأمر لم يكن عفو الخاطر ولم يكن إعجابا بالعامية والأدب العامي، إن الكتابة بالصيغة العامية والتقعيد الذي أشرت إليه لايجعل اللغة العامية لغة محلية فحسب وإنما سيجعلها لغة قومية قابلة للتطور لتصبح فصحى تحل محل العربية وعندئذ لاينفع اكتشاف الخديعة بعد فوات الأوان.

التلازم بين الدين واللغة[1]

أهم ما تعتد به الأمم من تراث لغتها ودينها، لأنها بهاتين الوسيلتين تحقق ذاتها وتميز شخصيتها، وهاتان الخصلتان هما رصيد الحياة لكل أمة يجب الحفاظ عليهما والذود عنهما، وفي اللغات التي سبقت اللغة العربية وعرفت الأديان لم يكن هناك بالضرورة تلازم بين اللغة والدين. فاللغة صورة حية ومرآة تعكس على صفحتها أمجاد الأمة وتعطى المثل الحي لما لها من قوة واعتزاز وما تفخر به وترفع من شأنه في حياتها السياسية والفكرية، أو تصبح لغتها صفحة داكنة تشهد بما تحس به وتعانيه في داخلها من خنوع وانفصام.

ولهذا السبب وحده أدرك أعداء الأمة العربية أهمية اللغة وخطرها على مطامع الاستعمار، وخطرها كعنصر فعال في الوحدة الكبرى التي قد تحقق لأهلها كيانا سياسيا يؤثر في السياسة العالمية ويحقق مكاسب كبيرة قد تحول هذه المكاسب دون تحقيق الأهداف التي يتطلع لها الأعداء، وعلى رأس أهدافهم تفتيت وحدة الأمة وتجزئتها لتستمر لهم التبعية أطول وقت ممكن لو استطاعوا.

فشرعوا يدرسون تاريخ اللغات ونشوءها وأخذوا لغاتهم مثلا وتاريخها دليلا.. إذ إن اللغة كائن نام متطور ومن طبيعتها إذا وصلت إلى مرحلة معينة من مراحل النمو اللغوي أن يحصل لها - سنة الله فى خلقه - نمو وارتفاع في جانب ويبقى جانب آخر دون مستوى الجانب الأول فطبيعة الكائنات الحية التفاوت في النمو والحياة.

وهنا تحدث ثنائية التعبير اللغوي فتختلف المستويات الفكرية للناطقين باللغة وتختلف القدرات الشخصية على التعبير المؤثر فيصطنع قوم أسلوبا خاصا في

---

(١) اليمامة ١٨/٥/١٣٩٧ هـ - ٦/٥/١٩٧٧م - عدد ٤٤٩.

الكلام والنطق وفي الكتابة إن كانت اللغة قد وصلت إلى مرحلة التدوين ويصبح هذا النمط من الحديث له عناصر مميزة يتكلم به علية القوم وارستقراطية المجتمع ويتحدثون به في المجالس العامة والنوادي وجسيم الأحداث ويصبح في ذلك النمط من اللغة روح مؤثرة جذابة مما يشجع على التأنق فيه ومحاولة تجويده كلما أمكن وفرضه فى أسلوب خاص يسمو به إلى أعلى وعلى مراحل صاعدة حتى تستقطبه فئة قليلة من المجتمع تعتبر هي القمة والمركز، فيحاول كل الأفراد محاكاتها فى هذا الأسلوب.

وفي ظل هذا النوع من الحديث تنمو لغة أخرى غير مكتوبة - نقصد بها اللهجة كما يعبر اللغويون العرب-تنشط مع العامة وعلى مستوى المجتمع ذي الكثرة العددية الغالبة، وتأخذ في البداية مسارا آخر غير مسار النوع الأول الذي يسير فيه علية القوم والمثقفون وهو الصعود إلى أعلى في اتجاه رأسي.

أما اللهجة فتأخذ الامتداد الأفقي على طول مساحة القطر وانتشار الأمة، ولا يلبث هذا المسار أن يصطدم بظروف خاصة توجه مساره إلى الرقي والصعود ويجد نفسه مضطرا إلى الخروج عن دائرة الظل ومحاولة المشاركة ثم التحدي على درجات السلم الصاعد، وهنا تقوم ثنائية التعبير وتتميز حتى تظهر بوضوح وتتجلى. . إلا أن الأمر لا يستمر طويلا بل تحدث ظروف تجعل إحدى هاتين الظاهرتين اللغويتين تقف عاجزة عن مجاراة الأخرى وغالبا ما يكون النصر للعامية. . لكنها لا تنفصل بصفتها الأولى بل باكتسابها خصائص اللغة الأدبية وانفرادها بما يجعلها لغة فن وعلم وأدب يتحدث بها العلماء والأدباء دون أن يشعروا بما تفرضه عليهم من خصائص انفردت بها خلال فترة النمو وخلال الحضانة مع اللغة الأصلية وفي أثناء الصعود المتداخل مع أصلها الذي انفصلت عنه واستقلت منه.

هذا ما يؤكده نشوء اللغات وتاريخه وهذا ما حدث في اللغات الأوربية المعاصرة التي تطورت عن اللغة اللاتينية القديمة عندما قامت خلال العصور الوسطى دويلات أوربية كان أساسها المدينة فأصبحت لكل دولة لغتها الخاصة التي تمت إلى الأم بصلة ومثل ذلك حدث فى اللغات السامية التي انقسمت إلى

عدة لغات باد أكثرها وانمحى وتميزت كل لغة من هذه اللغات بميزات خاصة عن أختها مع احتفاظ كل منها ببعض صفات الأم الأولى على حد زعم اللغويين ومفسري النقوش التى وجدت حديثا..

وهذا كله يمكن أن ينطبق على اللغة العربية ولكن التلازم الشديد بين هذه اللغة والدين أعطاها حصانة خاصة ومناعة طبيعية إذ جاء الله بالإسلام واختار العربية لغة كتاب ومعجزة رسول باقية مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كما وعد بذلك في كتابه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

بينما كانت معجزات الرسل قبل ذلك لا تقوم على اللغة كحجة ومعجزة بل قامت بعضها على علوم كعلوم الطب، والطب لا يحتاج إلى لغة بيانية بل هو ممكن بأى لغة وممكن بأي اصطلاح يتفق عليه، وبعضها قامت على علم كعلم السحر وكانت معجزة الرسول من جنس ما برع به قومه والسحر يعتمد على الدقة والسرعة والخفاء وكلها معجزات وقتية زالت بزوال ظروفها وملابساتها، هذه أشهر الأديان التي سبقت. ثم جاء الإسلام الذي اختاره الله للبقاء والخلود وللناس كافة وجعل لمعجزة النبي محمد من البقاء والاستمرار والخلود ما لهذا الدين.

حيث قامت المعجزة على الجانب البيانى والتأمل والتدبر لهذا الجانب وبلسان عربى مبين. وبهذا وحده خرجت اللغة العربية من دائرة اللغات المنحلة وشذت عن القاعدة اللغوية التى يلهج بها اللغويون ووقفت في سبيل تقدم العامية تحبط مساعيها وتحد من انتشارها ووقفت في حدود مرحلة فكرية معينة من مراحل الفكر لا يتجاوز مفكرو الأمة هذه المرحلة حتى تسيطر عليهم أهمية هذه اللغة ويؤمنوا بضرورة بقائها واستمرارها كمركز للوحدة وعنوان للدين.

وجعلها الله لغة الدين والعبادة فكل ضرر أو جهل بها يؤدي إلى البعد عن روح الإسلام ويقف حائلا دون فهمه والتأمل والتدبر هذا هو الجانب الديني من اللغة.. أما الجانب الآخر فقد كان أعداؤنا أكثر تقديرا له وادراكا لخطره وقيمته للعرب والمسلمين.

إذ قدروا أن العرب لو أدركتهم النهضة والتحمت وحدتهم على أسس متينة من الدين واللغة لصاروا خطرا يخشى منه، واستطاعوا أن يعيدوا مجد الأمة الإسلامية الأولى وربما الخلافة الإسلامية التى لم تنم للسمتعمرين جارحة حتى قضوا عليها قضاء مبرما، فهبوا يدركون العرب المسلمين بأفكارهم المحمومة قبل أن تدركهم النهضة المرتقبة وقبل أن يصحوا من غفلتهم، وأسرعوا يبثون سموم القوميات القطرية ويثيرون النعرات العرقية وينسبون كل أمة إلى أصل غير أصلها ولغة غير لغتها وعندما واجههم الرفض القاطع لنظرياتهم المزعومة عمدوا إلى شيء آخر يجدونه أقرب وأسلس وأحب إلى الناس فشرعوا في نشر العامية والاعتناء بها وأخذوا يؤلفون المؤلفات بهذه العامية ويترجمون بها الكتب أيضا وينعون على أهلها إهمالهم لها وازورارهم عن جانبها فكان لصيحاتهم صدى استجاب له بعض المتسرعين من أبناء اللغة الذين لم يلبثوا أن أدركوا الخطأ الذي وقعوا فيه عن حسن نية ولم يكملوا الرحلة فرجعوا وتحقق وعد الله بحفظ لغة كتابه وعنوان وحدة العرب والمسلمون المرجوة، وأخفقت الدعوة إلى العامية إخفاقا ذريعا وأصبحت المؤلفات التى ألفت بها أثرًا بعد عين..

واليوم نسمع ونرى لونا آخر لتلك الدعوة تحت ستار الأدب الشعبي فى العالم العربي وهذه إحدى الجامعات العربية تنظم أول مهرجان تجمع كبير لدراسة الفولكلور العربي الشعبي وهو أمر معقول إن اتخذ الحيز المناسب له واقتصر على تسجيل النماذج المشهورة في كل قطر عربى لتبقى تدل على خطوة من خطوات التطور اللغوي والتسلسل الطبيعي بنمو اللهجات ليستفيد منه اللغويون والباحثون المهتمون بالأصوات وما يجرى عليها من تغيير أو انتقال وفى حدود معقولة.

لكننا نشفق أن يتحول الأمر إلى اهتمام مركز على هذا النوع يصاحبه موجة إعلامية تعطيه أهمية أكبر مما يجب فيتحول إليه اهتمام الناس وعلى حساب اللغة الفصحى وعيبنا دائما أننا نبالغ في كل جديد وننذفع إلى كل حادث ونعطي أحكاما مسبقة على الصورة الذهنية قبل تجسيمها على الواقع.

وتضيق عندنا منطقة الوسط حتى تصبح كخصر الحسناء..

لماذا تهتم الجامعات الغربية بدراسة الأدب العامي؟[1]

قبل فترة كانت صفحات «الجزيرة» ميدانا لمناقشات دارت بين بعض المحررين وقراء «الجزيرة» حول رأي الكاتب يحيى المعلمي في الشعر النبطى، ذلك النوع من الشعر المعروف في بعض مناطق الجزيرة العربية، ورأى المعلمي لا يخالفه عليه أمثاله ممن ثقافتهم وتجربتهم ونظرتهم البعيدة ومتابعتهم للحركات الأدبية والثقافية تؤهلهم لمعالجة مثل هذه القضايا الأدبية ذات الأبعاد والحساسيات التي يجب علاجها بموضوعية واستيعاب لما يترتب عليها اليوم وغدا.

ويبدو أن الحوار بدأ على الهامش حول هذا النوع من الشعر وكاد أن ينتهى عليه، إذ إن صاحب الرأي الأصيل - المعلمي - وبعض الذين قد يكون لهم رأي في القضية لم يقولوا شيئا فيما اطلعت عليه على الرغم من اقحام بعض المناقشين لأسمائهم - كحمد الجاسر وابن خميس - ولعل بساطة العرض للموضوع، وتقدير عاطفة العاشقين والهواة لهذا الشعر - وهم كثرة لا يستهان بها - جعلت هؤلاء يلتزمون الصمت ويتجاهلون الموضوع بدءا وانتهاء.

لولا أن كاتبًا تناول موضوع الشعر النبطي ببعد آخر في مقال كتبه في جريدة «الرياض» «حروف وأفكار» ليلق فيه على بعض ما كتب حول هذه القضية ويخص مقالا كتبه القارئ أحمد الصالح سخر فيه على حد قول الكاتب من جامعة منحت درجة الدكتوراة فى هذا الشعر لباحث سعودي كما سخر من شخص الباحث أيضا.

---

(١) الجزيرة ١٤٠٢/٥/٣ هـ - ١٩٨٢/٣/٢٨ م - عدد .

ولا شك أن من يتصدى لدراسة القضايا الأدبية والفكرية يجب أن يبتعد عن أسلوب السخرية وأن يدير حواره بجدية وتجرد كامل، فالجد في معالجة الفكرة في حد ذاتها هو المطلوب ولا أظن أحدا يخالفنا في هذا ولو على الأقل نظريا، فإذا سلمنا أن أسلوب السخرية أمر مرفوض علميا، وجعلنا الهدف هو معالجة الفكرة المطروحة باستقلال وتجرد مبتعدين عن خصوصيات الإنسان وشخصيته، إذا سلمنا بكل هذه البديهيات فإن الحكم على من يتجاوز هذه الحدود يختلف باختلاف علم المتجاوز وثقافته وتجاربه فى الحياة وباختلاف مركزه الأدبي والعلمي أيضا، وإذا كان الكاتب قد استهل حديثه بالألم والامتعاض من اللهجة الساخرة التي تناول بها القارئ أحمد الصالح شخص الباحث ورسالته والجامعة التى منحته هذه الدرجة العلمية على بحث هذا النوع من الشعر فهل استطاع هو أن يتحاشى هذا الأسلوب من جانبه وهو الكاتب والأستاذ الجامعي ذو المنهج والتخصص الأكاديمي. حروفه تقول: إنه لم يبعد كثيرا عن أسلوب السخرية التي يرد فيه على القارئ أحمد الصالح، وإذا كنت لم أطلع على أطروحة الدكتور الباحث، موضوع الحوار، ولا على منهجها العلمى، فالكاتب عدل وشهادته مجزية والدكتور الباحث محمول على سبعين محملا من الخير عملا بالأثر الذى لا تأخذه به الجامعات الغربية، لهذا فإنى أبادر وأقول:

إن هذه الكلمة لا تتناول رسالة الدكتوراه موضوع الحوار، وأنا لم أرها ولم أتصورها والحكم على الشيء فرع عن تصوره كما أنني هنا لا أتناول الجامعة التي درس فيها الباحث..

وبحث أي ظاهرة لغوية في رسالة دكتوراة أو غيرها أمر لا غبار عليه ولا ضير فيه سواء في الشعر النبطي أم العربي ما دام الهدف هو المعرفة لذاتها وفي حدود البحث المنهجي..

لكن أود أن أناقش نقاطا أوردها الكاتب في حدود ما أعرف وفي ضوء تجاربي المحدودة.

أولاً: ارتكز دفاع الكاتب على ركيزتين، الأولى الدفاع عن سمعة الجامعة ومركزها العلمي، وتقاليدها الراسخة.

الثانية : جهود الباحث التى وصفها بأنها جبارة في إكمال الأصول النظرية للرسالة.

ولا شك أن التقاليد العلمية للجامعات الغربية ذات المستوى الجيد ومنها جامعة بيركلي شيء لا جدال فيه وأن لها تقاليدها وسمعتها العلمية التي لا تتنازل عنها كثيرا وأهمها بناء الشخصية العلمية للباحث الغربي الملتزم بالتقاليد والثقافة الغربية نصا وروحا وما يتصل بالحضارة الغربية من مثل وأخلاق، وهي بهذا الجانب لا تقبل الحلول الوسط ولا تتساهل في شيء، أما ما يتناول تراث الحضارات الأخرى التى تدرس في هذه الجامعات كالتاريخ واللغات والأديان فللجامعات تجاه طلاب هذه العلوم مواقف أقل تشددا، وغالبا يمر الباحثون في هذه العلوم مر الكرام. . خصوصا إذا كانوا من غير الغربيين، وقضية التشجيع والدفع المستمر من قبل هذه الجامعات لطلابها وبالذات العرب منهم على أن يتخصصوا في موضوعات شبه مرفوضة أو مثيرة للجدل في المجتمعات التي ينتمي إليها هؤلاء الطلاب أمر معروف أيضا، وبعض هذه الجامعات تلجأ إلى اقناع الطلاب الشرقيين بتغيير تخصصاتهم التى قدموا للبحث فيها أو تغيير الموضوع الذي يختارونه قبل التحاقهم بالجامعة ليخدم البحث هدفا من أهداف الجامعة في حين يكون متفقا مع تقاليدها الراسخة وسياستها التعليمية بغض النظر عما يعود على الباحث أو مجتمعه من نفع.

ولكنها لا تبخل على الباحث الذي يأتي إليها بفكرة واضحة وهدف محدد ولا تقف في طريقه إذا رأت منه التصميم والقدرة على الاستيعاب والفهم للموضوع الذى يريد درسه بل تحترم هذا الطالب وتسعى جاهدة لمساعدته.

أما ذلك المتردد أو ذو الفكرة غير الواضحة عما يريد من تخصصه في موضوع ما، فهي تقدم له موضوعا ورأيا وتبذل في سبيل إقناعه بصواب رأيها وصلاحه وسائل مقنعة للطلاب، مثل أن تلقي في روعه أن الموضوع الذي لا تستفيد الجامعة من بحثه قد طرق كثيرا أو لا جديد فيه أو أن بحثه يأخذ وقتا أطول وجهدا شاقا ويتطوع المشرف بعد مشاورة رئيس القسم بتقديم عدد من البدائل في الاختصاص نفسه مع تغيير الموضوع أو تغيير التخصص والموضع معا،

ويوضع في الاعتبار قبل كل شيء الفائدة التي ستعود على الجامعة من هذا البحث والنقاط التي سيطرقها الباحث ومدى فائدتها للجامعة طبقا للمنهج والأسلوب العلمي السائد فيها.

وإذا كانت الظاهرة المراد بحثها عويصة خصوصا ما يتعلق باللغة فهم ينتقون من أهل اللغة ذاتها الطلاب الأذكياء والجادين في الدراسة وذوي التفكير المنظم الذين يتوقعون فيهم القدرة على الاستنتاج وإبراز الحقائق التي يريدون الوصول إليها وهم بذلك يصلون إلى هدفين : تحقيق النتائج التي يريدون الوصول إليها ثم يتجنبون المزالق الخطرة التي قد تقود إليها هذه الدراسة ويلقون بتبعاتها على الطالب وحده، والشعر النبطي ظاهرة بدأت تهتم بها الأقسام الشرقية في هذه الجامعات وتود لو تحول كل طلابها العرب إلى دارسين لأصول هذه الظاهرة وعلاقتها باللغة العربية وظروف نشأتها وتكوينها، وجامعة بيركلي وغيرها من الجامعات الغربية تهتم بهذه الظاهرة وبظاهرة العاميات في جميع أنحاء العالم العربي، وبطلابها ومعظمهم يدرسون قبل التخرج من الجامعة منهجين للغة العربية، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، وحتى نكون أكثر موضوعية نقول : إن الجامعات الغربية تتبع منهجا حديثا لدراسة اللغات صوتيا ولغويا وتبحث على ضوء هذا المنهج اللغة واللهجة وصلة كل منهما بالأخرى وفي معظم الجامعات الغربية أقسام متخصصة في دراسة علم اللغويات الحديثة، إلا أن هذه الظواهر العامية واللهجات المتعددة في اللغة الواحدة لا تدرس كأدب أو فن - فيما نعلم - وفي جامعات المملكة أكثر من أستاذ كانت رسائلهم عن ظواهر ولهجات محلية بحتة، وإذا كانت رسالة الدكتور الباحث من هذا النوع فهي إضافة جيدة وعمل يستحق التقدير.

لكن الكاتب يرى أن الشعر النبطي أدب كغيره من الآداب، فهو يقول مثلا : «إن الآداب مستودع لهموم الإنسان وأحزانه وآماله وطموحاته» ونحن نتفق معه على وظيفة الأدب هذه كالأدب العربي والروسي والفرنسي والإنجليزي وكل الآداب العالمية، لكن نحن هنا بصدد قضية خاصة لا يجوز فيها التعميم هي الشعر النبطي وماهيته هل هو أدب أم لا؟.

يبدو أن الكاتب الفاضل متحمس لهذا الشعر فهو يقول : «السؤال المهم هنا هل يستوعب الشعر النبطي هموم الإنسان الذي يعبر من خلاله وهل هناك جمهور يتذوق ويستمتع بهذا اللون من الأدب . . ؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة تحسم الموقف لصالح القضية التي نطرحها هنا، انتهى . .

هذا التسليم المطلق والحسم في المواقف أمر لا تعرفه القضايا الأدبية كلها في الآداب المعروفة فضلا عن هذا النوع الذي لا يزال اطلاق لفظ الأدب عليه موضع خصام وفضلا عن كونه لا يزال مجهولا حتى الآن عند كثير من سكان المملكة ولا يكاد يعرف خارجها إذا استثنينا بعض مناطق من الخليج، وما دامت قضية هذا الأدب قد حسمت بهذه الجدية، فلا بأس أن نسأل الكاتب منهم الذين حسموا الموقف لصالح القضية وأين الشق الآخر من هذا الأدب وهو النثر الفني، وهل قضيته قد حسمت أيضا؟ ثم من هو هذا الإنسان الذي يعبر بهذا الأدب عن همومه، وأحزانه وآماله . . وطموحاته . . هل هو الإنسان الذي عاش عصور الانحطاط الأدبي والانحدار الفكري والأمية المسيطرة، ولم تتهيأ له أبسط الوسائل الثقافية مع وجود عاطفة متوقدة وروح شفافة وقلب نابض بالحياة فاحتاج أن يعبر عن خلجات نفسه ومكونات فؤاده - والحاجة أم الاختراع - فعبر عن حاجاته البسيطة وتصوراته الساذجة بأسلوب متواضع وتفكير ضيق، أم هو الإنسان المثقف الواعي الذي يعيش عصر التحدي الكبير لتاريخ أمته ودينه وثقافته ومبررات وجوده، ويرى موقفه المتخلف من ثقافة العالم من حوله في حين أنه ينهل من مهيع الثقافة ويمكنه أن يختار أرقى الأساليب وأجمل الفنون الأدبية للتعبير عن همومه وآماله وأحزانه وطموحاته بلغة لا تخضعها الحدود الاقليمية الضيقة، وقد يكون هذا الإنسان قد قضى شطر حياته في البحث والتحصيل وطمحت به الآمال إلى أن يدرس في السربون أو اكسفورد أو هارفارد أو بيركلي أيضا طمعا في أن يشارك في رفع أدب أمته العريق إلى آفاق واسعة ورحاب عليا، ويمثل دوره الإنساني وموروثاته الحضارية ويسهم مع أمثاله من مثقفي العالم وموهوبيه بأدب رفيع ولغة راقية لكنه يكتشف في آخر المطاف عبقرية العامية السائدة في جزء من بلاده على استيعاب هموم الإنسان وآلامه وآماله وطموحاته.

أي هذين النوعين من الناس يصلح أن يتخذ من الشعر النبطي وسيلة أدبية للتعبير عن الهموم والآمال. . إلخ. . بل الأمَرُّ من ذلك أن الكاتب يرى أن : «قراءة الجذور التاريخية تساعد على فهم وبلورة تصور نظري واضح لشخصيتنا القومية ولهمومنا المعاصرة ولازمه جيلنا المعاصرة». استميح الكاتب الكريم عذرا أهو جاد فيما يقول؟ وهل يعتقد حقا أن جذورنا التاريخية لابد أن تدرس على ضوء الشعر النبطي؟ وهل شخصيتنا القومية وضحت وتشكلت بهذا الشعر؟.

إن الإيقاعات الجميلة لهذه المعاني، القومية، التاريخية، المعاصرة، لا تعفي أحدا من ممارسة دوره ومسئوليته تجاه حضارته الإسلامية والعربية سيما طليعة الشباب الواعي الذي يفترض فيهم شمول النظرة وبعد الاتجاه، والسلوك الحذر في خوض هذه القضايا الحساسة أمر واجب، والدعوة لشِعر عامي معين تنطوي على أخطار أسهلها تحريك المجاراة في نفوس أبناء المناطق الأخرى من المملكة الذين لا يفهمون الشعر النبطي ولهم في الوقت نفسه نوع آخر من الشعر الشعبي لا يقل اهتمامهم به عن اهتمام غيرهم بما يستسيغون ويفهمون، ولو اشتغل كل بما يسود فى دائرته الضيقة لتشتت الجهود التى يجب أن توجه لخلق أدب عالمي ينطلق من الجزيرة اليوم كانطلاقته بالأمس.

الجامعات الغربية واهتمامها باللهجات :

أما إشادة الدكتور بجامعة بيركلي وغضبته المضربة عندما تجرأ أحد مواطنيه فمس سمعتها لعدم تقديره فيما يبدو معجزات الجامعات الغربية وخلقها لبعض الطلاب العرب خلقا آخر فأمر هين، لكن المهم هو الاستشهاد برصيفتها هارفارد التى صرفت الأموال على فتاة أمريكية وفرغتها لدراسة الشعر النبطي، وهذا هو بيت القصيد، ونحن واثقون أنه لو لم تجد جامعة بيركلى شابا جلدا بحاثه تقدم له بلاده المال ليدرس في هذه الجامعة هذا اللون من التخصص لفعلت مثلما فعلت هارفارد لكنها وجدت من يوفر عليها المال والمغامرات ويكون قوله فصلا وصوابا في عامية لا تحسنها الشقراء المرسلة من هارفارد، ولو توقف الدكتور قليلا عند هذه الجامعة التي خصصت المال وفرغت الباحثة للشعر

النبطي وأفاد قراءه من هي اليد العليا التي تدير سياستها ومنهم الأكثرية من أساتذتها وطلابها وما اهتماماتها وميولها؟ لعرف القراء لماذا اهتمت هارفارد بدراسة الشعر النبطي ولماذا خصصت المال وأرسلت الفتة الحسناء إلى الرياض لدراسة هذا الشعر وهي ليست «إبنًا من أبناء هذا الوطن» ومن يدري فقد تكون فعلت هذا من أجل الحفاظ على «جذورنا التاريخية» أو لعلها فعلت ذلك للبحث عن حلول معقولة «لهمومنا المعاصرة ولأزمة جيلنا المعاصر».

ليت الكاتب وهو يعرف أسبابا أخرى - غير اهتمام الجامعات وقاعات البحث الأكاديمي بهذا اللون من الدراسات - أوضح تلك الأسباب التي جعلت الجامعات الغربية تركز اهتمامها على دراسة العاميات في البلاد العربية وبالذات الجزيرة العربية، فنحن لم نسمع أن هناك جامعات خصصت الأموال وفرغت الباحثين لدراسة العامية التركية أو الفارسية والسواحلية والازبك وغيرها وهي لغات «أمم لها شعر شعبى وآخر فصيح» ومن يتكلم هذه اللغات في بلدانها أضعاف من ينظمون الشعر النبطي في شبه الجزيرة أو يفهمونه بل لماذا لم تهتم هذا الاهتمام بلغاتها ولهجاتها الشعبية، ولماذا لم تخصص الجامعات الإنجليزية مثلا الأموال وتفرغ الباحثين لأدب «القيلك» لغة الاسكتلنديين الأصلية التي ينتمي إليها ستة ملايين من المواطنين البريطانيين ولماذا لم تهتم بأدب وشعر «الولش» التي ينتمى إليها أكثر من ثلاثة ملايين بريطاني.

وقد عشت في بريطانيا زمنا ولا زلت بها متابعا عن قصد اهتمام الجامعات وقاعات البحث الأكاديمي في اللغات المحلية واللهجات المتعددة فلم أسمع برنامجا مذاعا أو متلفزا في هذه اللغات ولم تنظم محاضرات وندوات في قاعات البحث عن هذه اللغات، ولم أقرأ صفحة واحدة أو صفحات في أى جريدة يومية مخصصة للأدب الشعبي، ولم أسمع دعوة إلى إحياء هذه اللغات واللهجات.

وبالمقارنة فاهتمام الجامعات الغربية بالعاميات واللهجات العربية أمر معروف والكاتب الفاضل يتخذ هذا الاهتمام دليلا على أهمية ما يقول ولعلمه فهناك عدد من المؤلفين والمؤلفات عن عاميات الجزيرة العربية والخليج أهمها

كتاب جونستون وهو منشور ومعروف عن لهجة الساحل الشرقي للجزيرة العربية ومنهم أستاذ لنا أمريكي الجنسية يبحث منذ أكثر من عشر سنوات في عاميات جنوب غرب الجزيرة أي الجهة المعاكسة للموقع الذي اختار جونستون عاميته - وبحثه عن لهجات جيزان وعسير والقنفذة ووادي الدواسر، والمقارنة بينها وبين بعض لهجات شمال غرب المملكة وهذا الأستاذ يتكلم العربية الفصحى كأحد أبنائها وهو يعمل في المملكة منذ أحد عشر عاما ويجيد عددا من اللغات غير العربية منها الفارسية والعبرية وكتابه سيصدر قريبا إن لم يكن قد صدر، وبهذا تكون كل عاميات الجزيرة قد نالتها عناية الغربيين وغطت احتياجاتنا - الشرق جونستون والوسط فتاة هارفارد والغرب «ثيودور بروهاسكا» . .

لكن دراسات الغربيين علمية بحته ومكتوبة باللغة الإنجليزية ولم تكن أدبا ولا فنا، وإنما تتبع ظواهر لهجات مختلفة وتحاول الوقوف على الأصول اللغوية لبعض الاستعمالات سواء ما ينطق بنظام الجملة أو المقطع من الجملة أم الكلمة وما يتعلق بنظام التصريف والاشتقاق، وهذا لا نجده عند الكثير ممن يدرس العاميات العربية من العرب، أي أن العرب الذين يدرسون العاميات ويكتبونها ستكون نتائج دراساتهم مهما اختلفت مقاصدهم ذات شقين :

الأول : تفتيت اللغة الفصحى وتعويد الناس على قراءة العاميات وكتابتها التى لا يزال البعض لا يحسن كتابتها أو قراءتها قراءة صحيحة ومن لا يحفظ القصيدة النبطية لا يستطيع قراءتها مكتوبة حتى الآن.

الشق الثانى : هو تحويل الملكات الإبداعية لدى الشباب إلى الشعر العامي وممارسته واللهو به عن الشعر الفصيح والأدب الراقي.

ونختم هذا المقال بالسؤال التالى : ما الفائدة التي يمكن أن تعود على باحث من وسط عامي يذهب إلى أوروبا وأمريكا يحمل بضاعة مجتمعه العامي ويقضي وقته يعرض هذه البضاعة العامية على أستاذه وجامعته ويعلمهم خفاياها وأسرارها ليستفيدوا هم قبل أن يستفيد هو ثم يعود بعد أن يمنح الدكتوراة في هذا التخصص إلى مجتمع كل أفراده من النساء والأطفال والشيوخ والأميين

يحملون أكثر من شهادة دكتوراه فى هذا التخصص دون إضاعة وقت أو صرف مال.

وأرجو ألا تفهم هذه الكلمة على أنها تعصب ضد الجامعات الغربية أو نكران لمنهجيتها، فأنا أحد طلابها ومعجب كل الاعجاب بمنهجيتها وقدراتها على تنمية مواهب الطالب وتأهيله للبحث النافع، ولكن المهم هو الوعي لدى الطالب واختيار الموضوع الذي سيبحث في هذه الجامعات وهو مسئولية الباحث وحده، والواجب عليه أن يختار ما يخدم تراثه وحضارته وما يعود على مجتمعه بالنفع، وهذا هو ما نريد ممن يذهب إلى الغرب للدراسة، ولابد أن أشير هنا أنني لم أطلع على كل ما كتب عن الموضوع حيث لا يتهيأ لنا ذلك بانتظام.

ما الاسم المناسب لغير الفصيح من الأدب ؟[1]

من المسلم به لدى المشتغلين في العلوم الإنسانية ولدى المتأدبين وأهل الفكر أن كل علم من العلوم لابد له من حد ومصطلح يجمع كل صفاته الخاصة به ويمنع عنه دخول ما سواها وقد أدرك المشتغلون في العلوم والآداب منذ القدم أهمية التعريف ودقته وصدق التسمية وانطباقها على المسمى، وجعلوا لكل فن اسما جامعا مانعا كما يقولون حتى لا يتشعب المراد وتدخل فيه خصائص وصفات ليست له.

ومشكلة المصطلحات في الوقت الحاضر مشكلة يعاني الناس منها لكثرة المصطلحات العلمية والفنية والأدبية الحادثة في حياتنا وتعددها وعدم الدقة في استعمالها وغموض الكثير منها وبُعده عن بيئتنا الثقافية، وأقرب الأمثلة هي المصطلحات السياسية والجغرافية والايدولوجية التي نسمعها ونرددها في الحديث والكتابة ونستعملها أحيانا في معنى بعيد عن مدلولها ومعناها المراد منها.

وقد نُعْذَر في الخطأ إذا كان المصطلح من وضع غيرنا ووافدنا علينا لكن ما عذرنا إذا اختلفنا على شيء خاص بنا ونابع من ذاتنا ولا مجال فيه للخطأ أو التشعب الذي قد نتسامح فيه بعض التسامح لو كان من غير بيئتنا.

ماعذرنا مثلاً إذا اختلفنا حول مسمى الأدب غير الفصيح وهو ألصق الأشياء بنا وأخصها في حياتنا ومع هذا فلا نزال مختلفين حول الاسم المناسب له الذي يجب أن نجمع عليه ونختاره.

وماكنت أريد ابتداء هذا الرأي ولا التحدث عن مصطلحات وأسماء الأدب

---

(١) الجزيرة ١٤٠٥/١١/٨ هـ - ١٩٨٥/٧/٢٥ م - عدد ٤٦٨٣

الشعبي لسببين اثنين، الأول أنني أعلم أن الجزيرة التي تتيح لي الفرصة في الاطلالة على قرائها بعض الوقت لا تحبذ الخوض في مثل هذا الجانب الذي طال الحديث عنه بلا فائدة، والأولىَ أن احترم رغبتها ولا أتكيء كثيرا على كرمها ومجاملتها فأقول وأكتب ما لا ترتاح له.

الأمر الثانى : أن قولي قد يكون مجروحًا في هذا المعنى ولا أظن الكثير من محبي الأدب الشعبي وأنصاره يقبل آرائي التي فيها شيء من التحفظ على الأدب العامي شكلاً ومضمونًا، وما كنت أكتب عنه لو لا أن الحميدي الحربي كتب في صفحته في الجزيرة الجمعة الماضية كلمة شكا فيها الاختلاف حول مصطلح الأدب الشعبي كما يحب أن يسمى وطلب رأيا يجمع عليه الناس، فأحسست في كلمته روح الصدق وطلب الصواب.

وأدركت أنه سما إلى رحاب البحث عن الحقيقة التي يسعى كل إنسان في سبيلها ويطلبها أنىَّ كانت : يقول في كلمته بعد أن أورد اختلاف الناس حول الشعر العامي وهل هو النبطي أو البدوي أو الشعبي أو العامي ؟ وأي هذه الأسماء يمكن أن يتفق عليه ليكون هو المصطلح الوحيد للأدب العامي ؟ يقول : (وعندما أطرح القضية من جديد فليس رغبة في الجدل بل على العكس تماما فأنا وغيري من المهتمين بهذا الأدب نريد أن نصل إلى نهاية مقنعة لهذه القضية وإن كنت مع من يسميه الشعبي وهذا لا يعني أنني لن أقتنع برأي الطرف الآخر فيما لو كان مقنعا. . . فإننا نريد إجماعا على تسمية هذا الأدب حتى نتمكن من تقديمه على الوجه الذي يرضى عنه الجميع).

هذا هو رأي الباحث عن الصواب الذي لايصر على رأيه وقناعته إذا قام الدليل على خلاف ما يذهب إليه ولا يرفض رأي الطرف الآخر بل يحترمه ويقتنع به إذا كان صوابا. ومن حسن الحظ أن الحديث لن يكون عن الأدب العامي ولا عن قيمته ولا عن فائدته وإنما سيكون بحثا عن مصطلح يتفق عليه، ولن يتجاوز حديثي هذا المعنى، فالكاتب أفسح المجال للاجتهاد ووعد بقبول وجهة النظر ورأي المجتهد وسوف أتحدث عن الأسماء التي ذكرها الحربي وهو شاعر من الشباب عرف الناس شعره الجيد وأثنوا عليه قبل الصفحات الشعبية

وقد كان شعره موهبة وطبعا، ومثل الحربي آخرون سبقوا بمواهبهم وشعرهم شعراء الصفحات الشعبية كما سبق أو العتاهية عروض الخليل بن أحمد وأبحره، ولكنهم لم يحتجوا بالسبق على أدب الصفحات الشعبية كما احتج أبو العتاهية ولم يرفضوا التعاون بحجة سبقهم الصفحات التي تهتم بالتراث الشعبي، وقبولهم لم يكن عن قناعة بما ينشر ولا رغبة في الشهرة والظهور كغيرهم الذين يبحثون عنها لأن لديَّ الشاهد من أقوالهم أنهم ليسوا راضين ولا قانعين به. أما الشهرة كشعراء فقد اشتهروا قبل الصفحات الشعبية ولا أحسب قبولهم الأشراف إلا إنقاذا لما يمكن انقاذه بعد أن طغى سيل الشعر غير الفصيح وأصبح شعراؤه يعدون بالمئات.

نأتي إلى أسماء الشعر والأدب غير الفصيح فنجدها كثيرة ومتعددة ومختلفة في كل البلاد العربية بينما هي في الجزيرة والخليج تكاد تنحصر في أربعة أسماء هي: النبطي والبدوي والشعبي والعامي وسوف أحدد كل واحد من هذه الأسماء لعلنا نصل إلى الاسم الذي إذا أطلق على غير الفصيح من الأدب انطبق عليه كل الانطباق وحدّه حدا لا يختلف عليه الكثير من الناس.

النبطي

من أقدم الأسماء التي أطلقت على الشعر غير الفصيح، وأنا لا أعرف متى بدأ استعمال كلمة النبطي ولا متى استعملت ولم أقرأ رأيا لأحد يقنعني بحجة قاطعة متى ولماذا سمى الشعر خاصة غير الفصيح بالنبطي؟ لكن الذي أفهمه من فحوى التسمية أنه وصف وتمييز للكلام الذي يخرج عن أصل اللغة العربية وقواعدها وأقرب الأعاجم إلى العرب كانوا أهل السواد وأنباط العراق وكانت تنسب لهم كل خصلة لا تنطبق على العرب مثل لا تكونوا كنبط السواد إذا سئل الرجل عن نسبه قال من قرية كذا، ومثل وصف ابن القرية لبعض قبائل العرب بأنهم عرب استنبطوا إذن التسمية تشبيه لكلام العامة الملحون بكلام النبط تمييزا له عن كلام العرب الفصيح واستهجانا لاستعمال الشعر غير المعرب في بداية الأمر وقد شاع الاسم في الماضي ولكن لا يجوز اطلاقه اليوم على الأدب غير الفصيح وهذه هي الأسباب:

أولاً : يبدو أن اطلاقه كان على القلة من أهل صناعة الشعر غير الفصيح وقد يكون هؤلاء ممن سكن في أطراف العراق حيث النبط، لكن بعد أن انتقل إلى قلب الجزيرة العربية ونظمه العربي البدوي الذي يغلب على مفردات لغته الفصاحة وإن كانت خالية من الإعراب فإن تسميته بالنبطي شيء لا يرضاه العرب ولا يجوز أن توصف به آدابهم وأكثر من يقول الشعر غير الفصيح في وقتنا الحاضر هم العرب الخلص الذين لا يرقىٰ شك إلى عروبتهم.

الثاني : إن اصطلاح النبطي يعني به في الغالب بعض الشعر الذي ينظمه العرب من قبائل شمال المملكة والخليج ولا يطلق الاسم على أدب أجزاء أخرى من الجزيرة العربية فلتلك الآداب غير الفصيحة أسماء أخرى غير النبطي.

وتسميته بالنبطي تسمية بعيدة ومحصورة في جزء منه ولا تصلح أن تكون اسما جامعا لكل أجناس الأدب غير الفصيح في الجزيرة العربية لأنه لا يجمع كل الآداب غير الفصيحة ولأن إطلاقه كان عيبا ألصق في كلام العرب الذي خلا من الاعراب وشبه بالكلام النبطي وهو بعيد عنه على الرغم من عجمته ولحنه لكن مفرداته لازالت سليمة إلى حد ما.

البدوي

البداوة ليست لغة ولا جنسا بل هي أسلوب حياة وحرفة عمل وطريق معيشة كان يعيشها قطاع كبير من أهل الجزيرة في الجاهلية والإسلام وإلى يومنا هذا ويسمى هؤلاء بدوا تمييزا لهم عن القرويين وأهل الاستقرار، والبدو هم أفصح العرب في جميع العصور حتى وإن كانوا هم أول من قال الشعر غير الفصيح لكن تسمية الشعر غير المعرب بالبدوي لا تصدق إلا على القليل منه وأكثر الاسماء المشهورة في الوقت الحاضر وفي الماضي من الشعراء ليسوا من أبناء البادية ولا أظن أحدا يعد بركات الشريف والوقداني وعبيد الرشيد والقاضي وابن لعبون والهزاني وحميدان الشويعر ممن ينطبق عليهم مصطلح البدو في الجزيرة العربية حتى وإن فاقوا شعراء القبائل العربية في الشعر لكن شهرة الشعراء القرويين في الوقت الحالي أغلب ثم إن شعراء الوقت الحاضر كلهم

بلا استثناء من القرويين ولا نجد شاعرا واحدا يزاول حياة البداوة حتى نصف الشعر بأنه شعر بدوي.

إذا التسمية بالبدوي ليست مما يصلح للاجماع.

الشعبي

هذه التسمية هي أحب الاسماء إلى عدد كبير من أهل الاهتمام بالأدب غير الفصيح وتفضيل هذا الاسم على غيره له أسباب لدى محبي هذا الفن ولسنا بصدد البحث عن الأسباب لكننا بصدد البحث عن مصطلح مناسب واسم يطابق المسمى، فالشعبي بالمعنى القديم الذي هو أجناس مختلفة من البشر لا يصدق على ما نريد منه اليوم والشعبي في معناه الحديث بعيد كل البعد عن الوفاء بالغرض المطلوب والأهم من ذلك كله أن هناك اصطلاحا متفقا عليه للأدب الشعبي :

أولاً : هو ما جهل قائله وليس هناك شرط أن تكون لغته عامية.

ثانيا : أن يكون شائعا على ألسنة الناس عامة وتعرفه كل طبقات الشعب، وأن يعبر عن وجدان جماعي.

وليس في الأدب غير الفصيح القائم الآن شرط واحد من هذه الشروط التي تحدد معنى الشعبي ومدلوله.

إذا لا تصدق تسمية الشعبى على الأدب غير الفصيح الموجود اليوم لعدم توفر حد المصطلح الشعبي عليه.

العامي

هو كل كلام خالف في بنائه ونظمه وحركاته قواعد الاعراب ونظم اللغة الفصحى التي حددها علماء اللغة واصطلحوا عليها.

والأدب غير الفصيح خالف في بنائه ونظمه وحركاته قواعد اللغة الفصحى بلا خلاف بين كل المهتمين في الدراسات اللغوية.

وصفة العامي تنطبق كل الانطباق على الأدب غير الفصيح في جميع البلاد العربية وليس في الجزيرة والخليج فحسب، والعامي يصدق على أنواع ومسميات الآداب العامية الشائعة في الوطن العربي التي لم نذكرها على الرغم من شيوعها في أقطار عربية مجاورة مثل الحميني والزجل والملحون وغير ذلك فكلها تصب في لغة عربية عامية خارجة على قواعد اللغة الفصحى.

نخلص من هذا إلى أن الاسم الجامع المانع والحد الفاصل للأدب غير الفصيح في اللغة العربية هو العامي وليس غيره.

فهل تقتنعون بهذا الاسم؟ وهل يقبل الحميدي الحربي وزملاؤه هذا الاجتهاد؟ أي مصطلح: التراث العامي؟ استعدادا لتوحيد المصطلح.

الفصل السادس

المحاضرة

المحاضرة*

أنظر غربًا وأنظر شرقًا وأنظر يمنًا وانظر شامًا، أنظر إلى موطئ قدمي. ثم أعود بنظرة تاريخية إلى مطلع هذا القرن الذى نعيش آخره، فأذكر الماضي كله وأعدد الكيانات والصور الأقليمية التى كانت تهرش أديمه قبل هذا الكيان الواحد فلا أجد بدا من الوقوف مع التوفيق الذي صحب مؤسس هذا الكيان يوم استطاع رص تلك الصورة الهشة وأعادها بناء قويًا شامخًا فكانت مجتمعًا واحدًا إن لم يكن هو كل شيء فقد كان شيئًا مهما بالنسبة لنا.

كان من الممكن أن يكون هناك ستة كيانات ضعيفة متمايزة، وأن نكون نحن الذين ننعم بخير الوطن الواحد والأمة الواحدة منتمين إلى تلك الكيانات الستة أو الأكثر أو الأقل.

كان عبد العزيز عظيمًا فى جمع الشتات وفي انتزاع هذا الكيان من طمع الغريب وجشع القريب فكانت الجزيرة والدولة والمجتمع والوحدة فيها هى الرهان الناجح في كفته. ولم تكن فكرة توحيدها فكرة فردية آنية أو تلقائية بل كانت تصورًا شموليًا لأسس الوحدة الكاملة ومضامينها. فتفتقت صور الانعلاق الذي كان يؤمن به الآخرون. يقول أستاذ كبير ومتابع بصير وناقد قدير فى جريدة الرياض عدد ٩٥٦١ : «كانت فكرة الوحدة التى جاء بها عبد العزيز، وحققها بين مناطق المملكة أكبر من أن تستوعبها العقول فى تلك الفترة.. وقد تطورت ولكنها لم تتطور بالأفكار المجردة والشعارات، بل تطورت بالجهد والعمل المتواصل الذي لا يعرف الكلل.. لقد أصبحت واقعا محسوسًا تفرضه هذه الآلاف من الأكيال المعبدة والطرق وهذه الآلاف من الهواتف وهذه الآلاف

---

(١) ألقيت فى نادى الرياض الأدبي يوم الثلاثاء ١٤١٢/٥/١٣ هـ - ١٩٩١/١١/٢٠ م.

من رحلات الطائرات النفاثة، كما تفرضه هذه الهجرات المتدفقة إلى المدن من البوادي والقرى الكثيرة».

هذه صورة التكوين الحي الظاهر التي أدركها الكاتب أما صورة العمل لهذا التكوين فقد مضت بها الأخبار ونقلتها الأحداث، مما جعل الجزيرة مركز الدائرة الثابت في وقت فقد العالم العربي صور الثبات على شيء.

وقد كان البناء في الداخل أخطر من قيام سور الوحدة، وكانت قدرات البلاد وامكانياتها لا تكفي للكثير ولا تلبي تطلعات النظرة الشاملة. فأصبح فتح الباب أمام كل قادر لخدمة الوحدة من أبناء البلاد نفسها أو من أبناء العرب الذين يستطيعون الدفع إلى الأهداف العريضة للدولة وتنمية الدمج المتواصل لبناء الأمة توفيقًا آخر تحقق لنا نحن الذين نعيش ثمار النجاح الذي حققه المخلصون بوعي لا ينحرف إلى منعطفات الطريق. وقد مضوا وتركوا فى أعناق الأمة أمانة السير على أساس الوحدة والصهر لها فى كيان يجب المحافظة علية وألا نختار غيره، وسنزيد فيه ونرفع منه مع مضي الأيام، إلا أنه في حياة المجتمع كما هو الحال في حياة الأفراد تمر ظروف وأحوال يحتاج الناس فيها إلى الالتفات والتوقف والنظر والبحث عن الأفضل عندما يحسون بوضع متردد أو يدركون أن هناك مشكلات اجتماعية تفرض نفسها بقوة أو تعلن واقعًا غير مشروع يتستر بلباس المشروعية، وقد يكون رأي الإنسان فى هذا الحال من غير المستحسن طرحه، ولا من المرغوب إعلانه. لكنه قد يحتاج إلى رفض، قناعته الشخصية عندما يرى أن الخطأ يستهلك الحياة كلها ويستهلك نفسه ويستهلك مكاسب المجتمع التى دار عليها هدف التوحيد وعن هذا سيكون حديثي هذه الليلة، وقد يكون فيه بعض الصواب، وقد يكون فيه غير ذلك، وقد يوافقنى بعضكم وقد يختلف معي آخرون، وقد يرى بعضكم إن الأولى بمثل هذا الحديث أن يكون حديث مجلس مغلق، وقد يرى غيرهم أن مكانه هذا المنبر إذ تجتمع وجهات النظر وتختلف أيضًا.

أما ما أظن أننا لا نختلف عليه هو أن الحديث عن الواسطة (وهو موضوع هذه المحاضرة) يحتاج إلى محاضرة بل إلى محاضرات إن لم يكن يستحق دراسات

اجتماعية موسعة، ولا أظن أن في هذه البلاد ظاهرة تستحق من الاهتمام والتفكير والنظر والتحليل والاستقراء ما تستحقه ظاهرة الواسطة لأنها أصبحت حديث الناس اليومي والأمر الذي لا يختلف اثنان على أنه واقع، ولا يستطيع غض الطرف عنه بنو نمير ولا بنو عامر، وهو واقع معاش فى مجتمعنا، اختلطت فيه الحقيقة والخيال، وأمسى المجتمع ضحية هاجس الواسطة المؤثرة في ذهنه، مما رتب على ميله هذا خطأ اجتماعيًا ومفهومًا دلاليًا مؤسفًا، وسلوكًا لا نريد له أن يستشري فى مجتمعنا مع بداية خطونا نحو الأفضل والأقوى، لا أريد أن أسترسل فى دائرة السرد البلاغي والمعنى الأدبي للحديث، بل أريد الوصول بكم إلى مناقشة القضية من جوانبها المختلفة بعد أن أستأذنكم في الدخول إلى حصنها ومعاينة آثارها وما يترتب عليها من أشياء، وما أسباب قبولها في مجتمعنا على الرغم من عملية الطرد العكسى.

ما الواسطة وما هذا الحديث عنها إذن؟

تحدث عن الواسطة عدد كثير من رجال الفكر والأدب وأساتذة الجامعات والوزراء ووكلاء الوزارات ورجال الدين وعلماء الاجتماع وعامة الناس. ولأنى سأعتمد اعتمادا كليا في هذه المحاضرة على آراء هؤلاء جميعا وسأنقلها بأمانة إليكم مشيرًا إلى مصادرها. فإني سأحدد ما أريد الحديث عنه فى الواسطة التى أعنيها، لأن بعض الذين نقلت آراءهم كانوا يعممون الحديث تعميمًا واسعًا لا يتحقق فيه التعريف الجامع المانع كما يقول الأصوليون. ويخلطون خلطاً بينا بين مثل وأعراف اجتماعية راقية لا يستغني عنها مجتمع إنساني كريم، وبين سلوكيات مغلقة مظلمة لا يجب أن تبقى فى مجتمع يحترم نفسه ويؤمن بالعدل والمساواة ويطمح نحو كمال صورة الأمة.

فقد وصفت الواسطة مثلا، بأنها الشفاعة، وإصلاح ذات البين، وتسهيل لإجراءات الإدارية في بعض القضايا، وانجاز ما يتعلق بمصالح الناس لدى الموظفين، ورفع حاجة من لا يستطيع رفع حاجته إلى من يستطيع المساعدة فى قضائها، بل وصفها بعضهم بأنها مساعدة المريض فى علاجه والضعيف فى

قضاء حاجته. فجعلوا هذه المثل الاجتماعية شيئًا من الواسطة وتحدثوا عنها هربًا من حرج السؤال الذي يلح على كشف أسباب الواقع المفروض على المجتمع. وقد تردد السؤال في كثير من المناسبات دون أن يلقى جوابا شافيًا لاسيما إذا كان موجهًا إلى أحد دعائم البروقراطية.

(نعود مرة أخرى إلى السؤال عن ماهية الواسطة)؟

هل هي إصلاح ذات البين كما يزعمون؟
هل هي إنجاز أعمال الخير للآخرين كما يجب أن يكون؟
هل هي تسهيل الإجراء الإدارى للناس كما يقولون؟
هل هي رفع حاجة الضعيف للمساعدة فى قضائها؟
هل هي اكتشاف المواهب والقدرات الخاصة للشباب وتقديمها للناس لتأخذ مكانها فى دائرة المجتمع؟
هل هي علاج المريض ومساعدة المحتاج؟
هل هي شيء مما ذكر هنا أو قريب منه أو مشابه له؟

يقول القاموس: إن الواسطة هي الباب، وهذا الحد نراه يتفق مع كل ماسبق ذكره، ولكنني فى هذه الليلة سأرفض تعريف القاموس وسآخذ بتعريف الناس لأن ما أريد الحديث عنه وما أراده الذين سألوا عن الواسطة والذين كتبوا عنها والذين أثاروا الحوار بشكل أو بآخر حولها، هو شيء آخر هو المحسوبية وهو المحاباة في فرص العمل وهو الواقع الجديد في بنية المجتمع الذى بدأ يمارس فى مؤسساتنا العامة بشكل صارخ مكشوف.

وإذا كان بابا كما يقول القاموس فهو الباب الذي لا يملك مفتاحه إلا رجل أو رجلان في كل مؤسسة عامة ولا يعرفه ولا يدخل منه إلا المحسوبون والأقرباء ومن توجب الحميّة رعايتهم وهو فى الحقيقة السلم الذي يأخذ سالكية إلى القمة دون تجربة الخطو الطبيعى والسير المألوف.

ولهذا فإن حديثي عن الواسطة أينما ورد يعني المحاباة أو قل يعنى المحسوبية ويعني تخصيص المشاع وهو يعنى في النهاية الانطواء الذاتي والشعور الفئوي

ويعبر عنه مانشاهده من صور انغلاقية، بدأت تظهر وتكبر وتتسع حتى احتاج الأمر إلى الصوت الساكن والهمس المستتر، ثم المناقشة المكشوفة لهذه الظاهرة على جميع المستويات وفي مختلف الأصعدة، وأن تتمخض المناقشات عن جدل منتظم حول الأسباب والدوافع إلى ذلك.

أما ضررها وخطأ ما يحدث فليس موضع جدل أو خلاف، والآراء التي طرحت مجمعة على حدة الظاهرة واستفحالها وعلى أنه لا يجب السكوت عنها، ولكنها اختلفت فى تعليل الأسباب فانقسمت إلى رأيين : الرأي الأول ندد بها وبمرتكبيها وطالب بايقافها حالا وعمد إلى فضحها بصراحة دون تردد. أما الرأي الثانى فكان يقر بخطر فشوها ووجودها كظاهرة يجب أن تعالج، والقائل بهذا الرأي يشعر بضرورة البحث عن أسباب يتمنى أن تكون مقبولة أو معقولة على أقل تقدير تبرر حدوثها بمنطق لا يخلو من تكلف في بعض الأحيان، وقد تبنى هذا الرأي فئة من كبار الموظفين الذين تقل شجاعتهم عن مواجهة الخطأ ولا يسهل عليهم الاعتراف به ولا يجدون سبيلا إلى تجاهل ما يحدث ولا لإقرار به فى حين تبنى الرأي الأول بعض الكتاب والمفكرين وأساتذة الجامعات وعلماء الإدارة وبعض رجال الصحافة البارزين وأهل الرأى المستقل، فشرحوا الظاهرة وحللوا أسبابها، وبحثوا عن حلول لها ودعوا إلى معالجتها، وطلبوا إيقافها عند حد معقول، وعدوها خللا اجتماعيًا لا يجب أن يستمر، ولم تخل أراء هذا الفريق من طرح واع لمستقبل الأمة إذا لم تتم معالجة هذا السلوك الاداري ليقف عند حد معين. وكان في لغة الطرح شيء من النقد اللاذع والعتاب وضرب الأمثلة التي تجسم فداحة ما يرتكب. يقول أحد الكتاب وهو رئيس تحرير صحيفة سعودية واسعة الانتشار في الداخل والخارج (الرياض، عدد ٥٩٧٤) :

لم ينس الشعب الأمريكي من أين جاء :

«لا أفهم أبدًا كيف أبيح لنفسي مثلا لو كنت مسؤولاً فى دائرة ما، أن يكون طاقم المساعدين حولي أو المهمين فى دائرة العمل هم من أبناء مدينتي أو قريتي القديمة أو الذين تربطني بهم تجاذب قرابة أو صداقة، وبهذه المقدمة أصل إلى

رفضي التام لتلك الدوائر الضيقة التي تجمع الناس فى مجالات العمل أو الصداقات ولا أتصور أنه انتماء ينم عن شمولية الولاء لو سمح الإنسان لنفسه فى إشعاره لزميله المواطن الآخر بأنه معذور فى تقريب من يأنس للهجته أو ينتمي لمدينته على حساب إهمال الكفاءة المجردة التي تفترض منا احترامها مادامت تحمل هوية المواطنة».

ثم يتناول الكاتب التناقض العجيب بين الارتقاء العلمي والفكري وخطأ الممارسة لدى هؤلاء المعنيين فيقول: «أليس من الجاهلية العصرية أن تكون شهادات اكسفورد والسربون وهارفارد تكريسا ممجوجًا لذلك الانغلاق الذاتي».

ثم ينهي رأيه بقوله: «إنه لا يزعم أن الشعب الأمريكى نسي من أين جاء ولا أن الشعب السويسرى والألماني وغيرهما نسوا التقسيمات الأقليمية التي شغلت أوربا سنين عديدة ولكن هذه الشعوب عرفت أن هناك وطنا يدينون له بالولاء ويرتفعون إليه من وهدة الاقليمية المؤلمة».

ومثل هذا الرأي رأي آخر وضع له عنوان كبير أصدقكم القول أنه وقف شعر رأسي عندما رأيته (الرياض، عدد ٦٠٢٠).

الدولة وإقليمية النخبة:

تناول الكاتب تحت هذا العنوان موضوع المحاباة والمحسوبية في الجهاز الاداري للمؤسسات العامة وتحدث عن مخالفة هذا السلوك لمبادئ الوحدة العامة وخرقة خرقًا صارخًا لحق المسؤولية وأمانتها وحقوق الوطن، فقال: «غير أن ما ينبغي الوقوف عنده هو كيف نستطيع موازنة بعض التصرفات الإدارية التى تحكمها أمزجة خاصة ذات طبيعة إقليمية أو قرابية أو صداقية نشهدها فى كثير من المؤسسات العامة، وبين الموقع الذي تحقق لنا كمجتمع توحيدي أصبح لاسمه رنين في العالم.. كيف نتصور زيدًا من الناس يقوم بتصرفات جده أو جد جده يوم كانت الأقاليم متطاحنة والجهل مسيطرًا، في حين يحمل صاحبنا فى ذهنه أحدث النظريات في علم إدارة المجتمع والتنمية، إن هذه الظاهرة لجدير

بالمؤسسات العلمية المتخصصة الوقوف عندها، بل إصدار توصيات عاجلة وفعالة تبدأ بإبطال مفعول نظرية المزاج الخاص التي يتذرع البعض بها فى اختيار العناصر لمساعدة المسؤول فى إدارة الجهاز الذي يديره، فقد استغل البعض هذه النظرية استغلالا خاصا فى حين أن إعطاء الفرصة للمسؤول فى اختيار العناصر التي يشعر أنها قادرة علميًا وعمليًا على مساعدته جاءت لتمنع أي تدخل خارجي لفرض ما لا يريده المسؤول، بيد أن البعض لم يستوعب هذه الحقيقة فى إطار معطيات الوحدة الحقيقية».

ثم يمضي يفند الواقع المر حتى قال: «إن الدولة أتاحت للمواطنين كلهم التعليم والفرص كالماء والهواء غير أن بعضنا لم يكن في مستوى أمل الدولة التوحيدي في جَعْلِ الفرص متاحة فى إطار الوطن الواحد لا في إطار الاقليم أو المدينة أو الحارة.

وكما ترون فقد أنحى الكاتبان باللائمة على فئة اجتماعية خاصة هم أصحاب الصلاحيات من كبار الموظفين الذين درسوا فى أوسع بلاد العالم ديمقراطية وأكثرها روحًا تسامحية ولكنهم عادوا يحملون أفكارًا تجزيئية وصورًا إقليمية ونظرة ضيقة وكأن التعليم لم يغير سلوكيات هؤلاء، بل زادهم قدرة على تنظيم أفكارهم المتخلفة بصورة تضفي عليها مسحة القبول حتى صارت شيئًا منظما. ولا مقارنة بين سلوكهم وسلوك أبائهم، فسلوك آبائهم كان فوضى صارخة مرفوضة لسوء ممارستها وكان واقع آبائهم يفرض ذلك السلوك. أما هؤلاء فقد كان تعليمهم وتأهليهم الذى جعلوه وسيلة حديثة لتنظيم الممارسة نفسها بأسلوب إداري منمق يقيم الحجة ضدهم. وإلا لما أصبح خريجو الجامعات المشهورة أكثر انغلاقًا من آبائهم، والفارق هو أن آباءهم لم يتسنموا قيادة الأمة ولم يمهد لهم الوطن المتسع والمجتمع الحضاري ولو حصل ذلك لما عملوا على تكريس الشريحة والأخذ بمبدأ القرابة. أما أبناؤهم فقد وجدوا الوطن الرحب والأمة المتسامحة والمجتمع الواحد فأصبح من السهل عليهم أن يتسنموا بشهاداتهم رؤوس المؤسسات العامة التى تخدم الأمة ويبنيها المجتمع فيحولونها بصلافة إلى خلية خاصة لأبناء قريتهم وأهل رحمهم موهمون أنفسهم بأنهم

يبرونهم ويصلونهم ويعطفون عليهم. وهم في مقابل ذلك لايأبهون بحرمان الوطن كله من قدرات أبنائه عندما يحرمون الآخرين شرف خدمة الأمة والمشاركة فى أداء الواجب نحو الدولة والمجتمع أيضًا. يقول أحد الكتاب (الرياض. عدد ٧٢٥٣) في مقالة ملئت سخرية لاذعة لهؤلاء «تعبان أفندي شخصية ذلك الذي إذا تسلم زمام إدارة خاصة أو عامة راح يجمع أبناء أسرته أو بلدته فيضع كل واحد منهم على رأس عمل فتنقلب المصلحة أو المؤسسة إلى عزبة خاصة، ومع هذا يتبجح ويقول أمام الملأ : نعم أنا أجمع جماعتي وأقربهم وخيركم خيركم لأهله. حتى الحديث الشريف زوره جهلا أو تجاهلاً ونسي أن بر الأهل والأقارب هو في العطف عليهم ومساعدتهم ورعايتهم وليس بإحلالهم محل الكفاءات الممتازة وقد لا يكون لديهم من الاستعداد والمؤهلات والقدرات والخبرة غير قربهم من سعادته وقدرتهم على التأثير عليه من خلال الأهل والأقارب، ولهذا تجد عمله ضعيفًا وضائعًا بين حانًا ومانًا».

هذا الكلام الساخر المتهكم بالواقع الذي يفرضه أصحاب الصلاحيات الادارية على مجتمعنا يعد وثيقة إدانة حقيقية للممارسة باسم النظام وباسم الاختيار للمصلحة العامة وهو فى الواقع تكريس للمرفوض من شكليات التعامل غير العادل بين الناس. الذي تجاوزته النظرة الشاملة منذ خمسين عامًا، أي قبل أن يولد. وليس شخص تعبان أفندي رجلاً بعينه ولا رجلين أو ثلاثة من أصحاب الصلاحيات وإلا لهان الأمر وقوي الصبر وعدوا من الشواذ على القاعدة الذين لا يعتد بهم، لكن أصبح كل منهم ذلك الرجل، ولهذا فإن اللوم لا يتوجه إلى ذات معينة ولا تبحث أسبابه مرتبطة بهذا أو ذاك، بل هو توجه عام سار عليه الجميع قناعة أو محاكاة للآخرين وترعرع في ظل التسامح الأبوي الذي أولاه أولو الأمر لكل أبناء هذا المجتمع، والرفق الأخوي الذي عرفه الناس وتعاملوا به على هذه الأرض قبل أن تبدأ ممارسة الخطأ الذي فرض نفسه بشكل اصطلاحي جديد أو مفهوم وافد مع صور البيروقراطية الحادثة، فأصبح لا يجد أحد حرجا من ممارسته بل لا يشعر بأنه يفعل خطلا نتيجة لشيوع الظاهرة واستفحالها حتى ظن بعض كبار الموظفين أن هذا هو المطلوب وهو

المرغوب، فقال فى وسيلة إعلامية، ما يقرؤه الناس فيصعق منه الذين لم تلوث أحاسيسهم مزالق التجاوز، يقول الرجل عندما سئل عن المحسوبية والمحاباة : (الجزيرة، عدد ٥١٢٥) :

الغريب والقريب :

« إذا تساوى الغريب والقريب فإنني بصراحة سأفضل القريب، وهذا مبدأ من مبادئ الإدارة الحديثة. . . فقد وجد أن فرص نجاح العمل تكون أكبر عندما تكون الدائرة المحيطة به - بالمسؤول - من أقاربه ».

لقد كان الرجل صريحا الصراحة كلها، عكس ما يرى زملاءه يفعلونه دون أن يعرق لهم جبين، باسم الإدارة الحديثة وباسم الصلاحيات المخولة وباسم خدمة الأمة وتنمية روح الترابط فى المجتمع. وهو في الواقع تمييز واضح فقد قسم أبناء الأمة وأهل الوطن إلى غريب وقريب في رأي النظريات الحديثة التي سمع عنها الرجل وأشار إليها. وحتى إذا قبلنا جدلاً ما يقولون فإننا نجد أن لكل واحد من هؤلاء شركاته الخاصة وأعماله التى يديرها بجانب عمله الرسمى، وليس فيهم من استعان بأبناء عمه وأهل قريته فى إدارة مؤسساته الخاصة. بل كان اعتمادهم على الكفاءة المتميزة من غير الأقرباء وهذا يدحض ما يزعمون من أنهم يقربون معارفهم لمصلحة العمل ولنجاحه. وأعمالهم الخاصة التى يختارون لها أهل الكفاءة والخبرة من أبعد الناس عنهم تشهد ببطلان هذا الادعاء الباطل.

اختزال الوطن :

ولكننى مع ذلك كله لا أتهم الوعي العام بعدم الادراك لما يرتكب ولا أستطيع وصفه - أي الرأي العام - بالسهو أو الغفلة لأن الرصد كان واعيا والمتابعة قائمة والنظرة الشمولية دقيقة وكان التنبيه يواكب المخالفات الإدارية مشيرا إلى منطلقات أقرب إلى القبول وأجدر بأخلاق مجتمعنا. إلا أن الاصرار على استمرار وجود الظاهرة المزعج قوي بقوة العناصر المستفيدة لأنها استغلت روح التسامح والجبلة التى جلبت عليها الجماعة. ومن بوادر الادراك الواعي

لخطأ الممارسة ما جاء على إحدى صفحات جريدة (الرياض، عدد ٦٨٤٩) تقول: «فأنت تدخل مبنى إدارة حكومية أو قطاع ما... لتجد فريقا كاملا يديرون العمل هم من... أبناء الحارة وزملاء الأمس وأصدقاء الطفولة وقد احتلوا مواقع متميزة في التركيبة الوظيفية دون سواهم لا لشيء إلا لأن هؤلاء على مقربة خاصة من القائم على هرمية العمل. إن هذه الظاهرة أصبحت متبلورة في قطاعات عديدة وبشيوعها المرعب سوف تهدد حقائق تعارف عليها الناس في العمل والإنتاج وخدمة المجتمع.. غير أن هذه الظاهرة إن تركت فسوف تقوض الايجابيات لأنها تختزل مفهوم الوطن إلى وحدات صغيرة هي وحدة الاقليم أو القرابة أو الحارة وذلك ضد منطق العصر والتقدم والتاريخ والمجتمع المتجانس».

التعصب للإقليمية:

وإذا تجاوزنا نطاق الملاحظات اليومية للصحافة وكتابها فإننا سنجد الرصد والادراك الواعي الذي يستمد التجربة ويستقرئ التاريخ ويستنتج ما وراء الظاهرة وقد شارك في هذا التوجس كاتب كبير في سنه وتجربته وفي عمله، مارس حق التوجيه وأدى أمانة الكتابة بإخلاص قبل أن يعرف الناس ظروف استغلال المواقع الإدارية وواجبات القرابة فيها، وقبل أن يُعرف التحايل اللطيف على النظام. فأخذ الظاهرة التي نعرضها هذا المساء على أنها بلغت من البغض والخطورة ما جعله يتناول في حديثه إلى رموز الميل الاقليمي مرجعية تاريخية، ويشير بذكاء إلى ما يمكن أن يكون فيه عذر وما لا يمكن أن يعذر مرتكبوه فقال:
(الرياض، عدد ٦٨١٤).

«ليس مما يستحب أن نستنكر التعصب في شخص ما أو في شريحة من المجتمع يتنامى في مشاعرها الاعتزاز بالقومية العربية وغالبا ما يكون السبب رد فعل لسلسلة من الأحداث وتطوراتها على امتداد مراحل من الزمن استوعبها التاريخ... لكن يبدو أن الظاهرة أنواع.. منها التعصب للاقليمية المحدودة الضيقة. هذا النوع من «الشوفنية» هو الذي أتوجس وأتحسب لوجوده وشيوعه

في نفوس شرائح من الشباب في المملكة وقد استغني عن التحديد بالنسبة للاقليم أو عن التعيين بالنسبة لأعمار هذه الشرائح . . لأن تنامي الظاهرة وانتشارها لم يعد يفتقر إلى هذا التحديد والتعيين » .

ثم يواصل حديثه في تشريح ما يقع تحت عينيه حتى يقول : « والمؤسف بل المنذر بما يتعارض مع الأسس التي قام عليها الكيان في المملكة هو أن الحبل متروك على الغارب بحيث أصبح من المألوف أن تعلن « الشوفنية » عن نفسها بمناسبة وبلا مناسبة في التعامل بين الأقران . . . إذ تبلغ « الشوفنية » الإقليمية الضيقة حد الاصرار على التعبير عن نفسها » . ثم يسير الكاتب قليلا إلى تفصيل الأضرار التي يراها تسير على خط أعوج ولكنه يستدرك شيئا مهما وهو أن هذا الخطل لا يعبر عن رضى أصحاب الشأن فيقول : « وللانصاف ، والتزام جانب النظرة العادلة ، يمكن القول : أن الدولة إذا كانت لم تلجأ إلى الأخذ بزمام المبادرة ، لمقاومة هذه « الشوفنية » الاقليمية الضيقة ، فإن السبب هو اعتمادها المطلق على الأسس القوية التي قام عليها الكيان وهي أسس كانت عبقرية المؤسس الملك عبد العزيز ، رحمه الله ، قد وضعتها من منطلقين ، هما عقيدة التوحيد بكل مضامينها الخالدة أولا ، ثم دمج أو صهر جميع أقاليم المملكة في بوتقة خرجت منها هذه السبيكة الفريدة التي يجب أن يتعذر أو يستحيل أن يتميز فيها إقليم عن غيره بأي خصيصة من خصائص التميز . . . ومن أهم وأنجح الوسائل التي يفترض أن تكون لها القدرة على مقاومة أي اتجاه شوفيني إقليمي لا أجد ما يمنع من أن أصفه بأنه بغيض ، وخطير إلى الحد الذي لم يعد يحسن السكوت عليه . . . ولنتصور على ضوء هذه الحقيقة ماذا يمكن أن يتمخض عنه التعلق بهذه « الشوفنية » التي لا أشك بأنها آخذة فى النمو السريع ، والانتشار الأسرع الذي لا أزيح الستار عن سر ، إذا قلت : إنه أصبح حديث المجالس في البيوت » .

وإذا كان الاشفاق والخوف من بوادر مقدمات الظواهر التى تقع بين أيدينا جعلا الرجل الذي بلغ الثمانين من العمر يخشى نتائج المقدمات الخاطئة فإنه يجدر بنا نحن الذين نواجه نتائجها المطروحة أن نعلن رأينا ونعلن رفضنا واستهجاننا للسلوك البغيض كما وصفه الكاتب. ولا أريد أن أنتقل بكم إلى

الرأي الآخر بعد أن عرضت آراء للكتاب والأدباء قبل أن أختمها برأي أستاذ لعلم الإدارة في أعرق جامعاتنا ورأيه نأخذه لأنه رأي متخصص في هذا الحقل وهو مفكر وأديب وكاتب أيضا، يقول: (اليمامة، عدد ٩٣٠).

المحسوبية:

«المحسوبية ظاهرة غير محمودة لكن المنطق وراء ظاهرة المحسوبية النظيفة إذا لم يكن في الامكان القضاء على هذه الظاهرة بسبب معطيات مجتمعية وقيم سائدة... ذلك أن المحسوبية كظاهرة تتغاضى كثيرا عن اعتبارات القدرة والمعرفة والفعالية في سبيل تمكين ذوي القربى والصلة والعلاقات الاجتماعية من أن يتسنموا وظائف ربما كانت في مستويات إدارية عليا ومحصلة ذلك معروفة، فهي انخفاض في الأداء وقهر المجدين من الذين لا تنطبق عليهم الاعتبارات وراء المحسوبية، وتدن في عطاء الجهاز أو المؤسسة، وسجل يحتل الفشل فيه مساحة كبيرة إن لم تحتل المساحة كلها.. ذلك أن عدم شعور الأفراد بأن المعيار المتحكم إليه هو معيار الكفاءة والقدرة والفعالية فإن عطاء المجدين المبعدين بسبب تغلب المحسوبية لن يكون عطاء جيدا ولن يكن لديهم الحماسة للعمل والمثابرة على أدائه على أفضل وجه وقبل ذلك وبعده لن يكون لديهم الشعور بالانتماء والارتباط بالجهاز أو المؤسسة... ومفهوم المحسوبية يرسخ التجزئة والفرقة والاختلاف داخل الكيان الواحد وهو من خلال ذلك قد يحبط الجد والاجتهاد والاخلاص في العطاء لدى الفئة القادرة على ذلك، إذ إن المحسوبية منحت الفرصة لمن هم أقل قدرة لأنهم من الذين تنطبق عليهم معاييرها وأطرها... والمحسوبية استشرت استشراء كبيرا وكادت أن تكون أو أصبحت عملا مشروعا وتوجها مقبولا، وممارسة واضحة للعيان، ولو تقصينا الوضع في أي كيان إداري لبرزت دون حاجة إلى التقصي وإن كان بروزها في بعض الأحيان صارخا وفي أحيان أخرى أقل بقليل من ذلك».

هذا رأي الكاتب في المحسوبية النظيفة كما يسميها أما رأيه في غير النظيفة فلا أستطيع نقله إليكم.

وبعـــد،

فقد سبق الحديث عن الواسطة في نظر رجال الفكر والأدب وأساتذة الإدارة وأهل الـــرأي الـــذين يـــرقبـــون السلوك الإداري ويستقـــــرؤن الـــواقـــع الـــذي بـــدأ يتجاهل عملية الدمج والاستمرار عليها وصهرها في بنية اجتماعية واحدة كما لاحظوا جنوح التطبيق الاداري الحادث ومجافاته لأسس التكوين الوطني المتفق عليه، مما ينتج عنه بعض الآثار المستقبلية التي لابد أن يكون للفعل غير الواعي الذي تباشره بعض الفئات رد فعل واع قد لا يسهل هضمه بعد حدوثه ولا تسهل السيطرة عليه، وقد بدأ يواجه المشكلة ويمارسها قطاع آخر قد لا يكون مقتنعا بها ولكنه يشهد منها صورا يومية ويتعامل معها سواء كان تعامله عن قناعة أو أنه كان منساقا معها انسياق الترس في حركة العجلة الآلية، عليه أن يدور بدورتها حتى لا يقع مطحونا بين أضراسها. ونخشى أن يدور الناس كلهم هذه الدورة الخاطئة في الوقت الذي تكون مصلحة المجتمع أقوى على مخالفتها.

الرأي الثاني :

أما الرأي الثاني فكان لكبار الموظفين الذين تناولوا الظاهرة وتحدثوا عنها وأقروا بخطورتها وأشاروا إلى ضررها ووصفوها بأنها داء يعمل في جسد الأمة عمل السم وعلى الرغم من ذلك فإن نغمة هؤلاء شابها شيء من التبرير لحدوث الظاهرة، وهو في طبيعة الحال تبرير لابد منه بالنسبة لهم لأنهم طرف في القضية، وطرح السؤال أمامهم هو في حقيقته تعريض بهم أو استهزاء غير مباشر بسلوكهم، ولهذا كان التبرير جزءا من الدفاع عن النفس ولابد أن يحدث عندهم إسقاط على العالم الثالث أو ما يشابه ذلك، لقد طرحت إحدى الصحف السعودية سؤالا عن المحسوبية وأثرها في المجتمع ووجهته إلى مسؤول كبير (عكاظ، عدد ٨٠٢٠) فكان من رده : «إن مظاهر المحسوبية وعدم وجود الضوابط الصحيحة لتقويم الجهد وتقدير الكفاءة متفشية في معظم بلاد العالم الثالث. . . والطبيعي هو أن يجد الموظف الحوافز المادية كلما أثبت كفاءة في عمله

وكلما أثبت تميزا في أداء واجبه. . . ثم أشار إلى أهمية تنمية الحوافز الدينية لدى الموظف. . . وأوضح أن الموظف إذا استقر في وجدانه الحافز الديني فهو إنما يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى باتقان عمله وزيادة كفاءته مؤمنا بأنه إذا لم ينل حظه المادي في الدنيا فسوف ينال الأجر والثواب عند المولى في الآخرة، ولاشك أن هذه الخواطر الايمانية في ذهن الموظف تدفعه إلى مضاعفة إنتاجيته دون انتظار للحوافز المادية التلقائية».

كلام جميل لو كان الموظفون لا يعرفون أن العمل للدنيا غير العمل للآخرة ومن يعمل في الجهاز الذي يتحدث هذا المسؤول عنه وغيره من مؤسسات الدولة يعرفون أن هناك طريقا للجنة وللآخرة طريقا غير طريق الوظيفة. أما الوظيفة فهي عمل للدنيا وان احتسب المؤمن فيها عمله فهو يحتاج المقابل والمردود العاجل، ولا نعرف شريعة في الأرض يعمل فيها الإنسان وتجير الحوافز في الدنيا لغيره ويحال أجره إلى الآخرة، وقد ينعكس الأمر ويطالب الموظفون هذا الرجل المسؤول بأن تنمو في ذهنه هو الخواطر الايمانية وتدفعه إلى العدل والمساواة فهو فرد واحد يسهل تطعيمه بالخواطر الايمانية والزامه بها حتى يتجنب هو وزملاؤه التجاوزات في تخصيص الحق المشاع للأمة وقد جاء في الحديث الصحيح الذي هو مصدر الخواطر الايمانية ما رواه أبو يعلى عن حذيفة مرفوعا «أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس وفي العشرة من هو أفضل منه فقد غش الله ورسوله وجماعة المسلمين» وعن عمر بن الخطاب فيما رواه الشيخان قال: «من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين».

مسؤول آخر وإداري مؤهل حشر في السؤال عن الواسطة (الجزيرة، عدد ٤٨٠٥)، فقال:

«الواسطة ظاهرة سلوكية إنسانية لا توجد في شعب دون آخر وإن تفاوتت درجاتها وآثارها من مجتمع لآخر حسب اختلاف أنماط العلاقات الاجتماعية السائدة، وحيث إن عدم دقة وشمولية الأنظمة وقواعد العمل يفسح المجال

أمام الموظف بل يشجعه على تفضيل شخص على آخر أو فئة على أخرى، كما أن الغموض في الأنظمة والتعليمات يؤدي إلى ترعرع الواسطة أو المحسوبية كما يصطلح على تسميتها أحيانا، كما أن مستوى التنظيم الاداري والرقابة الادارية يؤثران بشكل كبير على انتشار الظاهرة أو عدمه، إذ يصعب في ظل التنظيم السليم والرقابة الواعية المخلصة قيام الموظفين باتخاذ قرارات أو أعمال مبنية على اعتبارات غير اعتبارات المصلحة والنظام. . . ولكن كما هو الحال في المجتمعات التقليدية المترابطة تصبح الواسطة قيمة اجتماعية مقبولة ومطلوبة إجتماعيا حتى بين المتعلمين الذين بدلا من التأثير الايجابي للقضاء على الظاهرة أو التقليل منها فإنهم يخضعون لتأثيرها ويتأثرون بها».

يظهر أن النظام في رأي الموظفين مسؤول عن التجاوزات الادارية لعدم دقته، ولأنه كما يقولون ليس فيه تحديد يعتمد عليه وهو بطبيعة الحال تبرير معقول، إلا أن الذي يستفيد من النظام غير المحدد هم أصحاب الصلاحيات من كبار المسؤلين في الدولة الذين أعطاهم أولو الأمر صلاحيات واسعة رغبة في تحقيق منطلقات عريضة تفترض حق المشاركة وتقوم على الأسس المتينة التي رسخوها وعملوا على صيانتها والمحافظة عليها وتركوا التفاصيل الدقيقة لأبناء الأمة الذين سيمارسونها يوميا، وكان الواجب على هؤلاء المسؤلين أن يدعوا المؤهلين علميا وعمليا لمد الأسس المثالية التي حرص المخلصون على نموها في كل قطاعات المجتمع دون النظر إلى مواضعات اجتماعية محدودة وقيم سائدة مرفوضة وقد أثبتت تصرفات كبار الموظفين فشلهم الذريع في تحقيق الغاية فحاولوا الاسقاط على النظام. والنظام ليس قرآنا وفجواته ليست عذرا ومن السهل، بل من الواجب على كبار الموظفين كتابة النظام طبقا للمتغيرات الحادثة مع التطور ونمو الحاجة إلى الجديد وتأهيل الأجيال حتى لا يكون هناك عذر يحمل على أكتاف النظام.

لقد انتقلت بلادنا في السنوات الماضية نقلة رائدة في كل مجالات الحياة التعليمية والعمرانية والاقتصادية ونما مع ذلك الوعي العام كما نمت روح المشاركة في خدمة الوطن لدى كافة فئات المجتمع وقد حاولت الدولة جاهدة

متابعة حركة النمو والتطور مع الحياة بصفة عامة لكي تفسح المجال المتكافيء والفرص المتساوية للقادرين على خدمة الوطن، وقد نجحت في ذلك وتجاوزت المخانق الضيقة بشيء من الرضا عن النفس.

والإنسان على هذه الأرض بنشاطه الذهني والفكري هو أغلى ما فيها وهو العنصر الرائد وقد نال نصيبه من اهتمام الدولة وحظي بتنمية مداركه ومواهبه، وشحذت ملكات الابداع والعطاء لديه وفتح سبيل التعليم أمامه حتى تأهلت غالبية فئاته تأهيلا علميا وتهيأت للقيام بدورها كاملا، ولا شك أن من طبيعة البشر التفاوت، كما أن من طبيعة حركة الحياة التفاعل الاجتماعي والتطور وعدم الثبات. وقد كان لبعض فئات المجتمع سبق إلى العمل الإداري فوضعت لنفسها ميزات إدارية نتيجة ظروف خاصة تهيأت لها دون غيرها في السابق، فأرادت المحافظة عليها في الحاضر، وسبب هذا أن بلادنا مرت بظروف وسنوات طويلة كانت فيها الكفاءة الادارية الجيدة نادرة وكان البحث منصبا على من يستطيع أن يعمل ولو بأدنى درجات الكفاءة والندرة الادارية، ونتيجة لهذه الحاجة فإن شرائح اجتماعية قليلة كانت قد نالت قسطا من التعليم أفضل من غيرها فكان من الطبيعي أن تكل الدولة إليها مهمات إدارية كبيرة، وأن تعمل على تنمية القدرات العلمية والفنية الأخرى لتعدها للمشارة فشمل اهتمام الدولة قطاعات المجتمع السعودي كلها لتهيئتها لدورها في الحياة العامة، حتى لا يكون الاعتماد على شريحة اجتماعية محدودة، ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت أجيال تساوت في التعليم والتأهيل من جميع فئات المجتمع ووجدت الكفاءة الادارية الممتازة في كل تلك البيئات ومن كل الشرائح الاجتماعية بل أصبح أكثر المتعلمين المؤهلين القادرين على العطاء الجيد في الجيل الحاضر هم من أبناء القطاع الكبير الذي تأهل على أسس علمية حديثة.

وقد اتسعت قاعدة هذا القطاع عندئذ شعرت بعض الفئات التي كانت قد وصلت إلى قمة الهرم الاداري بتضاؤل حجمها العددي أمام التوجه العام نحو العمل في الدولة، وازدياد تطلع الكفاءات الجديدة للمشاركة في بناء الوطن.

فأسرعت إلى استغلال اسبقيتها ومواقعها الادارية المتقدمة لصالح أفرادها

حتى تحتفظ بميزاتها القديمة. فاستخدمت فنيات البروقراطية للابقاء على مكاسبها الادارية بحكم سبقها إلى مواقع التأثير وتهيئة القرار واتخاذه لصالحها. فكان ما يسمى بالاختيار على مبدأ الكفاءة مدخلا واسعا وجده هؤلاء سبيلا يجعل مبدأ القرابة هو الأصل في الاختيار.

وحين واجه المجتمع في السنوات الماضية تطورا جوهريا وبعد أن ذابت فوارق التعليم واستوى التأهيل عندئذ عملت الفئات القليلة المتمكنة على تحوير هذا التطور لصالحها وبدأ الاداريون التنفيذيون يهيئون القرار ليخدم أغراضهم، فظهرت المحاباة وبدأت تأخذ مكانا بارزا في مواقع العمل القيادي واتيحت الفرص الوظيفية العليا لأبناء هذه الفئةُ ومحسوبيها خاصة دون غيرهم، مما أحدث تكدسا رهيبًا لفئات محدودة في بعض المؤسسات العامة وأصبحت مكانا خصبا لنمو هذا التكدس غير المرغوب.

إن ميزة بلادنا وميزة نظامها الاداري قيامها على نظرية انتقاء الكفاءة الادارية لتعمل في خدمة الوطن، ودعما لهذا المبدأ منحت الدولة كبار المسؤولين فرصة اختيار معاونيهم ممن يأنسون بأدائه وقدرته على العمل معهم تحقيقا للمشاركة الوطنية لخدمة المصلحة العامة، ومحاولة اكتشاف المواهب الجديدة الشابة دون تمييز، لكن ظهر عجزهم - مع الأسف - عن حسن الاختيار العادل والانتقاء للكفاءة وللقادرين من أبناء الأمة في مؤسساتهم التي يشرفون عليها وانحصرت جهودهم في الاختيار لمعارفهم ومن يلوذ بهم لمعاونتهم ووضعهم في مراكز القيادة في المؤسسات العامة التي تحت إدارتهم حتى أصبحت كل مؤسسة عامة صورة لتكتل فئوي محدود.

لقد وضع ولاة الأمر وعلى رأسهم خادم الحرمين أن تطلعات الدولة هو بناء الأمة ورفع وعي المجتمع وتأصيل روح الانتماء القوي للوطن وتحقيق المشاركة في خدمته وعدم تكريس الانتماء للشريحة الاجتماعية أو الاقليمية تحقيقا لمبادئ العمل الرائد الذي قام به مؤسس هذه البلاد في توحيد الأمة وصهرها في بوتقة الدين والكيان الواحد والمجتمع متكافيء الفرص إلا أنه من المؤسف أن المحاباة

أصبحت ظاهرة تفرض نفسها في كل المواقع، وأصبحنا نجد صورا من التكتل الذي يخدم مصالح معينة وشرائح مخصوصة.

وإن نظرة سريعة إلى الوظائف التي يتم شغلها بالترشيح تؤيد وجود إقليمية الإدارة الأمر الذي لا يخدم ما يسعى إلى تحقيقه المخلصون من أبناء الأمة.

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٢٧٥٨
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 3634 – 9

٢ / ٩٢ / ٣٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)